

محمد شكري

www.mlazna.com

^ RAYAHEEN ^

السوق الداخلي

رواية



منشورات الجمل

هذا الكتاب

على العكس من معظم كتابنا الآخرين، تعلّم
محمد شكري لغة الأشياء العارية القاسية، قبل أن
يتعلّم الكلمات «المعبّرة»، لذلك تظل حياته اليومية
هي الأساس، وتغدو الكتابة بالنسبة له ادماناً
جزئياً يرفض أن يجعل منه قناعاً للتجميل أو مطية
للإرتقاء في السلم الاجتماعية...

محمد برادة



ولد محمد شكري عام ١٩٣٥ في الريف. انتقلت عائلته الى طنجة اثر مجاعة. دخل المدرسة بشكل متأخر (في أواخر العقد الثاني من عمره). تُرجمت أغلب أعماله الى العديد من اللغات العالمية. يقيم اليوم في طنجة. صدر له: مجنون الورد، قصص (بيروت ١٩٧٩)، الخبز الحافي، سيرة ذاتية روائية (الدار البيضاء ١٩٨٣)، الخيمة، قصص (الدار البيضاء ١٩٨٥)، السوق الداخلي، رواية (الدار البيضاء ١٩٨٥)، زمن الأخطاء، سيرة ذاتية روائية (الدار البيضاء ١٩٩٢)، جان جنيه في طنجة، مذكرات (الرباط ١٩٩٣)، تينسي وليامز في طنجة، مذكرات (الرباط ١٩٨٣)، السعادة، مسرحية (الرباط ١٩٩٤) و بول بوولز وعزلة طنجة (الرباط ١٩٩٦).

محمد شكري: السوق الداخلي، رواية، حقوق الطبع في اللغة العربية
(باستثناء المغرب) محفوظة لمنشورات الجمل، ١٩٩٧
الطبعة الاولى، كولونيا - ألمانيا

تطلب كافة اصدارات «منشورات الجمل» من الناشر مباشرة أو من:
المركز الثقافي العربي: لبنان - بيروت ص.ب. (١١٣/٥١٥٨)

الطبعة الثانية، ٢٠٠٦

© Mohamed Choukri 1996

© Al-Kamel Verlag 1997

Postfach 600501

50685 Köln - Germany

Tel: 0221 75 69 82

Fax: 0221 732 67 65

- ١ -

دفعني من الخلف. إستدرت. اصطدمت بشخص آخر. اعتذر لي الشخص الثاني. إعتذرت أنا للاول الذي كان يلاحق فتاة مرت قدامه بلباس قصير، مؤخرتها ممتلئة، مشيتها راقصة. تركت الشخص الثاني يتخطاني. هو أيضاً تلتهم عيناه وجه ومؤخرة امرأة. أشم عرقه وعرق الزحام في كل مكان. غمرني هذا الإحساس: لا مكان لي، في هذه المدينة، أينما شئت أن أذهب. لا أستطيع أن أمتلك شيئاً فيها: الأشياء والناس. الحواجز الحديدية، التي وضعوها في هذا الشارع الكبير لتنظيم المرور، ضاعفت هذا الزحام الخانق.

حلقة جد زاحمة. فسحت لنفسي مكانا بالدفع كما أراهم يفعلون. شبان وأطفال يرفسون، ضاحكين، مؤخرة كلب هزيل بقسوة. الكلب يتنفس بضعف. عيناه دامعتان. أحيانا يبدو كما لو أنه يتنفس لآخر مرة. سمعت أحدهم يقول:
- مسكين! لا بد أن سيارة دهسته.
- علي!

التفت نحو مصدر الصوت: فتاة، في الرصيف الآخر المقابل، تلوح بيدها إلى شاب وسيم واقف بجانبها. لوح لها هو أيضاً بيده وصاح

بالفرنسية:

فاطمي، إنتظريني هناك. لن تستطيعي العبور إلى هنا. سأحاول أنا العبور إلى هناك.

تَبَاوسا في الهواء. خيل لي أنني رأيت وجهها شبيها بوجه هذا الشاب في مكان ما. قد يكون هو نفسه. إن ذاكرتي البصرية قلما تخونني. حتى إذا لم أكن قد رأيته من قبل فإن ملامحه الجذابة تحببه إليّ. هناك وجوه تغضبني بلا سبب وأخرى تُفرّحنني.

— إلى الورا، إلى الورا أقول لكم. إبتعدوا عن الحاجز. شاب يلتحم بمؤخرة فتاة سمينه، يدها على كتفيها العاريتين. قال للجندي:

ها نحن نرجع إلى الورا، إنهم يدفعوننا من الخلف. صرخ جندي الحراسة بغضب:

— لا يهمني أن يدفعوكم. ما يهمني هو أن ترجعوا أنتم إلى الورا. إبتسم الشاب بسخرية. تراجع هو ورفيقته قليلاً إلى الورا. فتاته منزعة. أعادهما الدفع إلى مكانهما. جندي الحراسة ينظر إلى وضعهما الحميم بغضب. ترك الشاب يديه تنزلقان بملاطفة على كتفي رفيقته. أحاطها من خاضرتها بلذة. أصابعه تتجمع وترتخي جاذبا إياها إليه. من جديد صعد بمهل لذيد يديه متجمعة مرتخية أصابعه حتى لامس برفق منبت نهديها الضخمين. هبط يديه على مهل حتى خصرها. ضمها إليه بعناد ولذة. وضعهما صار الآن في هياج شهواني. ضاعفت حركة خلف — أمام ثم أمام خلف، من لذتهما.

عيننا الحارس تستمعيان، تتناعسان، لم يعد يتكلم. يكاد يبتسم، تأملت أنا الفتاة المستسلمة لرفيقها. لا أحب مثل هذا الجسم الشحمي. إن شكل وجهها يشبه بطيخة حمراء. يوحى لي بالغباء مثل هذا الوجه. يعجبني الوجه الذي يشبه شكله بيضة أو قلباً. هذا الجسم المكتنز من تحت، الأسطواني من فوق، لا تروق لي شهوانيته أكثر من مرة. إنها مثل وجبة طعام تُؤكل عن جوع وليس عن شهية.

تحركات في كل الارصفة حول الساحة. أعناق تتطاول من كل مكان. عجوز مغربية دامية الوجه يمسك بها أحد جنود الحراسة وأحد شرطة المرور. قدامي فتاة يلتحم بها من الخلف شاب. قالت غاضبة: — إذا أنت لم تتركني فسأشكوك لهذا الجندي أو لذاك الشرطي. من الأفضل لك أن تبتعد من خلفي.

— ليست لومتي. إنهم يدفعونني من الورا. وجه الشاب مورد وعرقان، عيناه حالمتان، شفتاه لامعتان. اقتربت سيارة إسعاف من المرأة العجوز. تخطت بيديها ورجليها بين يدي الشرطي والجندي.

— ماذا يكون قد حدث لها؟

— ربما أرادت العبور إلى الرصيف الآخر فوقعت على وجهها مندهشة وخائفة من ألا يتركوها تعبر. — ربما.

العجوز تقاوم الصعود إلى سيارة الإسعاف. رجال الإسعاف يمسكون بها وهي تبكي وتصرخ خابطة بيديها وترجوهن أن يتركوها

تذهب. هناك من يشفق عليها ومن يضحك. رفعوها خابطة بأطرافها في الهواء. أكره هذا النوع من الشبخوخة. لا أتمنى اليوم الذي يكون لي فيه مثل هذا العجز والخوف المرعب والمضحك.

عادت لذة الإنتظار بين المتزاحمين الواقفين. إستندت إلى جدار قرب مقهى باريس. قبالي القنصلية الفرنسية. داخل المقهى أرى أقداحا أكثريتها فارغة، منافض ملأى بالأعقاب والأوراق المدعوكية. ملامح الجالسين فيها فقدت حيويتها، هياتهم منهوكة، ينظرون إلى بعضهم البعض أو إلى المارة أكثر مما يتكلمون.

خيط من الدم يسيل من خطم الكلب العجوز. يغالب النعاس وعيناه تدمعان. خيط الدم يرق ويرق، ينقطع ثم يتولد خيط آخر يتدلى ببطء من خطمه. تكونت شبكة دموية قائمة رسمها تارجع رأسه. امرأة مغربية تنتحب. قال لها رجل:

— إذهي إلى المستشفى المدني ليحقنوك ضد السعار.

التفت إلي الشخص الذي نصح المرأة:

— أليس كذلك؟ لتذهب إلى المستشفى.

هززت له رأسي موافقا. أهو كلمني أم كلم آخرورائي؟ تكاد الوجوه يدخل بعضها في بعض. تتشابه علي الوجوه في هذه المدينة: قوس قزح. العيش فيها أخذ يبدو لي شبيها بأمل العيش في كوكب أزرق.

— إنه لا يعرف مايقول. إن الكلب المسعور لا يكون هادئا هكذا. إنه مريض فقط.

— لا بد أنها داست إحدى قوائمه فعضها.

خلع شاب فردة حذائه وضرب بها وجه الكلب. لم ينبج. يكشر عن أنيابه. حول وجهه بتأم، تدلت خيوط أخرى من الدم. قشعريرة باردة ركضت في جسمي. صرخ شخص ضاحكا:

— أعطه ضربة أخرى كي ينهض ويذهب من هنا أو اضربه حتى يموت.

غاضبة صاحت امرأة أجنبية بالإنجليزية:

— كفى! لماذا تضربه هكذا؟ ماذا فعل لك الحيوان المسكين؟

قال لها الشاب المغربي الذي يضرب الكلب بين لحظة وأخرى:

— إنه يعض يامدام. ولد القحبة يعض.

لم تفهم شيئا. احتذى الشاب فردته. قال لمن حوله:

— ولد القحبة حتى هو عنده من يحميه، إننا نعيش عصر الكلاب.

خذيه معك وداويه يامدام. إذا مات في الطريق فجريه إلى مقبرة الكلاب

في «بوانة».

لامه بعض الحاضرين فأنصرف. سمح رجال الأمن لبعض المارة أن

يعبروا إلى الرصيف الآخر. عبرت الفتاة فاطمي راكضة. إرتمت مشتاقة

على صدر زميلها. قبلته في فمه. ضمها بحب. التفتوا إليهما.

تكلمت بلهجة فرنسية سليمة. قالت الفتاة السمينة المشدودة من

خاصرتها إلى زميلها بصوت هامس:

— أبوها مغربي وأمها فرنسية. أعرفها، إنها تسكن في حي

«مرشان».

تأملت جسمها الشحمي الذي لا يروق لي: إنك تغارين منها.

أليس كذلك؟ إنها أجمل منك ورشيقة. أليس كذلك؟ التفتت إلي كما لو أنني تكلمت جهراً معها. ربما أحسست، من خلال نظراتي إليها، أنني أفكر فيها بسوء. حولت نظراتي عنها. بدأت أنظر إليها بحذر حتى لا أثير انتباهها. لا أريد مشاكل مع ديبها الذي يخاصرها. رافعة صدرك أصغر من نهديك الضخمين، عرقك يكشف عن قذارة صدريتك البيضاء، شفتك السفلى ممتلئة أكثر من شفتك العليا، شاربك الوبري لا ينسجم مع وجهك المدور. إنك مثل تونة ضخمة.

قالت الفتاة الجميلة لرفيقها:

- علي، لماذا يتزاحمون هناك؟

- ينتظرون موت كلب عجوز، الكلب ما يزال بعض كل من يدوسه.

(ابتسم ثم أضاف:) إذهبي لكي تري إذا شئت.

- أنت مجنون أم ماذا؟

تضاحكا بحب. ضمها إليه. التحما بلذة: فكرت: الرغبة الحقيقية، الشهوانية، لا تتم، أحياناً، إلا بمزيج هذه الانوثة المفرطة تلطفها هذه الذكورة المعتدلة: ثلاثة أجسام عناقها واحد.

زعيق طويل يسمع من بعيد. تطلعت الرؤوس نحو مصدر الصفير الحاد. ظهر رجال الدرك ثم سيارات أمن. بعد ذلك مرّ صف طويل من السيارات الفخمة. يخترقون الحواجز الحديدية بفوضى. يتدافعون. يتسابقون إلى العبور نحو الأرصفة الأخرى، يتشائمون. يصرخون. روائعهم الخبيثة تفوح منهم الآن أكثر مما كانوا واقفين. الكلب

ينهض. يسقط. يغالب ضعفه. يقوم بصعوبة. قوائمه تنكسح كما لو أنها من المطاط الرخو. فتيات يصرخن ويشتمن. المرأة الأجنبية لم تنزل تحمي الكلب. المرأة المغربية المعضوفة ذهبت منتحبة. حقنها ضد السعار ضروري. هكذا أكدوا لها. الكلب القرقازي يمشي. الكلب قرقاز تمزقت بعض خيوطه.

مرة أخرى وجدت نفسي يدفعونني من جميع الجهات. لم أعد أستطيع الاحتجاج على أي كان يدفعني. ماعدت أعرف المؤدب وغير المؤدب. الأمر أكثر إزعاجاً حين يطارد رجل امرأة في هذا الزحام. قميصي يلتصق بجلدي. حككت بأصابعي صدري. تشكلت فتائل من الوسخ تحت أصابعي. أكره رائحة جسدي في هذا الزحام. الأشياء تبدو لي مقلوبة ضبابية، الفتيان يتدافعون عمداً لأفطن كلمات جنسية. فتيات يشتمن الشبان الذين يقرصونهن من الخلف أو يضربونهن ضربات خفيفة على عاتقهن. شاب يمشي خلف شابة. شعرها طويل أملس مثل حرير سنبله ذرة خضراء. أخرج مقصاً وقص خصلة من سالفها ثم وضعها بهدوء في جيبه. لست أدري إن كان قد رآه غيري. فتاة أخرى تنتحب وامرأة تدفعها أمامها بين خطوة وأخرى. تنورة الفتاة جد قصيرة. فخذها ممتلئتان وعجيزتها مكورة وبارزة.

- سأقتلك إذا طلبت مني الخروج مرة أخرى في مثل هذا اليوم.

سأل شاب آخر عما حدث للفتاة. قال:

- شاب محمي برفاقه عراها من الخلف أكثر من اللازم.

- أين؟

- في الزحام. كانت واقفة هي وأمها تنتظران مرور الموكب الرسمي. ظلت الفتاة ساكنة حتى فطنت الأم لما يحدث لإبنتها من الخلف. ها فخذاي جميلتان. مؤخري ممتلئة. سروالي القصير الشفاف، أبيض أو وردي، يكشف عن أسفلي الحليق أو غير الحليق. نهدي دون رافعتين. ميني أو ميكرو من جميع جهات الجسم. السيقان، الافخاذ، المؤخرات، النهود والوجوه البهلوانية تتراقص بجنون وسخف في عيني. أصابني عدوى هذا الجوع مثل الآخرين. أخذت أكل عري بعض هذه الاعضاء كما يقضم طفل حلواه، لكن هذا المضغ الخيالي أخذ يضاعف من تعب حواسي. عيناى تفتسان وعقلي يعضغ بتثاؤب رتيب مُنهك. سأحمق إذا لم أكف عن هذا الهوى الخيالي. تكفيني حلوى واحدة حقيقية. كيف الحصول على هذه الحلوى البشرية؟ هذه هي الدوخة التي تُجنّني.

توقفتُ قدام مطعم «فلوريان». أثمان الاكلات على القائمة غالية في هذا المطعم.

استوقفني شاب أشعر. ملابسه وسنخة، شريط من القماش الملون بعدة ألوان معقود على جبهته، حافي القدمين. قال بالإنجليزية: من فضلك، أنا في ظروف صعبة، أعطني درهما إذا كان عندك. قلت له بالإنجليزية:

درهم واحد فقط؟

استبشرت ملامحه وقال:

- بيس، أوئلي وان بليزا!

- المعذرة. لا أملك أية نقود.

- اسمح لي.

ابتعد عني شابكا يديه وراءه. ملامحي ليست خبيثة كما أظن. يرتاح الناس إلي أكثر مما أرتاح إليهم. هذا ما يبدو لي. ها واحد يطلب مني درهما. آخر كلمني في الزحام حول الكلب. فجأة أحسست بصفعة وهمية على وجهي. لماذا لم أعطه الدرهم؟ ماكان ينبغي لي أن أسأله بمثل هذه السخافة: «درهم واحد فقط؟».

لقد تلاعبت بمشاعره. فكرت أن أركض وراءه لأعطيه الدرهم، لكن الفكرة بدت لي سخيفة. فات الألوان. سيكون زائفا عطائي. قد يرفض درهمي. لن أستطيع أن أرغمه على أخذه مني. ربما سيطلبه من شخص آخر يعطيه إياه دون تردد. ترددني يفسد علي كثيرا من الأشياء التي تريحنني.

قال الفندقني:

- عامر. أنظر إلى اللافتة. تعالَ غذا. ربما ستجد عندنا غرفة.

أنا أقبل أي مكان أنام فيه هذه الليلة.

- اعتذر. حتى مطبخنا ينام فيه شخصان. إذهب إلى السوق الداخلي. هناك كثير من الفنادق العائلية في دروبه.

أعترف بأنه ينقصني التمييز، سواء في هذه المدينة أو في سواها، ربما طفولتي الريفية مازالت تؤثر علي. لا أعرف، أحيانا، أهم يتخاضمون أم يتصالحون؟ يجدون أم يهزلون؟ أذكر تلك المرة في شارع الملكة إليزابيث: كان الشخصان يتغالبان. لم يستطع أحدهما أن يطرح الآخر

على الأرض. سدد أحدهما لكمة قوية لغريمه. تدخلت بينهما
لأفرقهما في لحظة عنيفة. أصابتني لكمة في وجهي. دُخْتُ. سال الدم
من فمي. ترنحت وابتعدت عنهما. مرت على عيني غشاوة عمى
الالوان وهما يضحكان. قال لي أحدهما ضاحكا بجنون:

— هل أنت بخير؟

إنصرفت باصقا دمي وتركتهما يستأنفان عراكهما ضاحكين،
صارخين.

هاهي واحدة سمراء تمر إلى جانبي. نظرت إلي بإغراء، سرواها
القصير الأبيض تكشف شفافته عن استدارة «سليبيها» المطرز
بنجيمات مثقوبة. ذراعها جميلتان وإبطاها يطل منهما الزغب
الأسود. إبتسمت لي عيناها. إن مثل هذه الإبتسامة تمطط الشرايين.
إبتسمت لها. ضحكت عيناها وانشرحت ملامحها. رأسها غلامي.
لاتبدو عليها ميوعة الأنوثة.

هل أصبحك؟

تطلعت إلي.

— إلى أين؟

— إلى حيثما تشائين. إنني حر.

نهداها صغيران. نوع من الوحشية الفتية تخفق في جسدها كله.
رائحة عطرها توقظ حواسي. توقفت قدام متجر هنداوي.

— لحظة. أدخل معي، إذا شئت. سأصارك: منذ أيام اشتريت
ثوبا صيفياً بسبعين درهماً. دفعت أربعين لصاحب هذا المتجر.

ينبغي لي أن أدفع له ثلاثين درهماً الباقية لأخذ هذا الثوب معي الآن.
أكمل لي هذه الثلاثين درهماً.

وافقت. لدَى دخولنا المتجر لامسني نهداها المتصلب في ذراعي.
تمشت اللذة مرعشة جسدي كله. إنها واثقة من نفسها. إمتزجت
رائحة عطرها برائحة عود الند الذي يفوح في المتجر. دفعت الأوراق
الثلاث. تخدير طفيف يسري في جسمي. تابطت ثوبها وشكرت
التاجر الهنداوي بالإسبانية. رد عليها الرجل باحترام:

— الشكر لك أنت يا آنسة.

«وجدتها!» هل أشرع في رقصة عارية خيالية؟

توقفت «مبني أوستين» بيضاء قرب الرصيف. فتح الباب. نادى
شاب أنثوي شكّل رأسه وصوته:

— فطيمة! أنا أفتش عنك، أين كنت؟

أهي لعبة بينهما؟ التفتت إلي قائلة باضطراب:

— أوه! أعتذر. أنتظري هنا عبر الشارع. سأعود اليك في لحظات.

صدقني. سأعود بعد قليل ونذهب حيثما تشاء.

قبلتني قبله سريعة في فمي وأسرعت. قبل أن تدخل إلى السيارة
لوحت لي بيدها باسمه وأنا أنظر إلى خلفيتها الجميلة. قبله أخرى
هوائية أرسلتها لي من داخل السيارة. قبله أخرى مع إقلاع السيارة.
تلويحة وقبله والسيارة تبتعد. إنها خدعة مدبرة بينهما. لاشك في
هذا. قبله خفيفة كفقاعة من رغوة الصابون ثمنها ثلاثون درهماً.
أخرجت منديلي ومسحت فمي: لوّن بُنيّ. قبله بنية ثمنها ثلاثون.

وَقَرَّجُهَا؟ فكرت: إن ما حدث لي لن يعيد التجربة من أولها. إنها مثل لعبة القليبر: إذا وضع اللاعب القطعة النقدية في الشق فإنه لا يسترجعها.

ها أنا أنسى ماتعلمته في حياتي. ربما سأنسى أيضا ما أتعلمه هنا. كثيرة هي المرات التي قلت فيها لنفسني: لن أنخدع بعد اليوم، لكنني لا أكاد أتأمل فيما حدث لي حتى يفاجئني حدث جديد ينفي ما إحتزنه من تجارب. هكذا يصعب علي أن أقبض على شيء أكون متأكدا من فهمه وعدم الوقوع في خدعته. إنني أنخدع في نفس الشيء عدة مرات ولنفس الأسباب. لست أدري ما هي العلة الحقيقية؟ أهى كيمياء نفسي البطيئة تجاه كيمياء الأشياء الأسرع؟

قهوة سوداء في فنجان لكي أستعيد توازني. سوداء دون سكر مع قليل من الكونياك وشريحة ليمون. إنني أستعذب هذا المزيج قبل تناوله. باللذة! لعل غفلتي سببها هذه الدوخة التي أفقدتني صفاء ذهني هذا المساء. ما ينقصني، أحيانا، هو الإنسجام مع الأشياء والناس. عجبا: عرفت تلك الفتاة كيف تسلبني ثلاثين درهما ولم يعرف ذلك المهيب الشقي كيف يأخذ مني درهما واحدا. أهذا معناه أن الرجال أغبياء مع بعضهم البعض والنساء كذلك مع بعضهن.؟ إذا كان هذا صحيحا فإن هذه الخدعة ربما يكون سببها ثقة الإنجذاب الطبيعي بين رجل وامرأة. من كثرة ما قد يعتقد إنسان أنه رجل مع امرأة فقد تضيع منه رجولته معها. إن الجنس فخ!

مقهى «الزهرة» يعوم الآن في بحيرات من الضوء. مصابيح

مدفونة وزهور اصطناعية مغروسة في حواشي السقف. هيا، إنتبهى ياخلايا مخي! تجددى..!

دخلت. جلست قدام الباب. ظهر شيخ مغربي وراح يجمع المقاعد ويقلبها فوق الطاولة بحوية. غير ممكن. هل هم أيضا سيكنسونني من هنا؟ اقترب مني النادل القصير وقال:

- اسمح لنا، سنقف.

- الآن؟

- نعم، الآن. إننا تأخرنا أكثر من اللازم.

ينظر إلي وفي يده حفنة من النقود. لم أعرف أيعدّها أم هو فقط يتسلى بنقلها من يد إلى أخرى! يبدو عليه التوتر. نحيف وشاحب. انسحب مُدْمِماً بكلمات لم أسمعها بوضوح. أخذ يكلم الحاني الذي أسمعته يشغل الآلة الحاسبة بصخب. نظرت إلى الشارع. خطوات بعض المارة تكنسه في تعب وملالة. خرجت.

في الماضي، حين كنت أعيانا من الحديث مع الناس، أقول لنفسني: أسبوع. أسبوع كامل سأتحاشى خلاله أية علاقة بشرية. ساكلم الأشياء في صمت: الشمس، السماء، البحر والغابات. طبيعة الأشياء لا طبيعة الناس.

أعيش ليومي.

بلا حسرة عن قَواتِ الأَوَانِ.

إذا الغد جاء

نسيتُ به كُلَّ ماضي زماني.

هذا ماقلته ذات يوم. هل أنا قادر اليوم على أن أعيش هذه الفكرة؟
يخيلُ إلي أن زماني يندفع إلى الامام أكثر من اللازم. إنني أجد الناس في كل مكان أو لا أجدهم في أي مكان.

توقفت سيارة الأمن. نزل منها الشرطي وقال لي:

- إطلع.

قلت له:

- عندي البطاقة الشخصية.

- أقول لك إطلع.

لمجته يفهم منها: «اركل الهواء ان استطعت. عضْ على الغُبار».

المواء لا يُركَل. الغبار لا يُعَضُّ. إذن سأصعد.

كان ثلاثة أشخاص داخل السيارة. قال الشخص السكران:

- لست أدري لماذا يقبضون علي! لست سكران، لم أتناصب مع

أحد، مع ذلك..

زجره الشرطي السائق:

- هل ستغلق فمك أو لا؟

بعد كل شيء يكنسونني بهذا الشكل. في الصباح سيسرحونني.

هذا ما يحدث غالباً في مثل هذه المناسبات الرسمية. إنهم يطلون

الجدران، ينظفون الشوارع ويقبضون على المشبوهين. كل شيء يعود

إلى قذارته حتى يقترب أوان زيارة رسمية أخرى. هذا ما يحدث في

مدينتي: مدينة الدولار و«هللو مان»!، «كمان ديس وي مان!» لا بد

أن يحدث نفس الشيء في هذه المدينة التي بدأت تكشف عن نفسها.

مدينة داعرة كما سمعت وقرأت عنها مثل مدينتي التي حبّلها
الأمريكيون ثم هجروها. هناك حكاية عن مدينتي تقول بأن جندياً
أمريكياً نكح حمامة في حقل وعلق لها ورقة مائة دولار في أذنها.

توقفت السيارة. هبطنا ودخلنا إلى المركز. كان هناك أشخاص

جالسين على مقعد خشبي طويل. فسحوا لنا مكاناً وجلسنا. السام

باد عليهم. بين حين وآخر ينادي شرطي على شخص أو شخصين أو

أكثر للتحقيق. عاد الشرطي الأول الذي ركبنا معه. طلب مني أن

أتبعه إلى ممر. قال لي:

هات هويّتك.

أعطيته إيّاها. ألقى عليها نظرة ثم أعادها لي:

- يمكن لك أن تذهب الآن، لكن كفّاك تسكعاً.

أردت أن أقول له شيئاً. لم تطاوعني الكلمات. مرة أخرى سحت في

ليل المدينة. فكرت في أن أدخل إحدى الحانات لأشرب. كلا. لن

أدخل. المحترفات يتصرفن دائماً بسخافة واستهتار. إنهن يطلبين

مشروبات كحولية باهضة الثمن، لكنهن لا يشربن غير لون المشروب.

تطلب إحداهن كريم دومنت ماري بريزار قَيْصُبُ لها الساقبي محلول

الننع الطبعي. تطلب جين طونيك بالليمون فتشرب طونيك دون

جين. تطلب ويسكي فيعطونها محلول الشاي الأسود الخفيف. حين

يسكر الواحد وتنغد نقوده فغالباً ما يقذفونه إلى الهواء الرطب في

الشارع وجيوبه مقلوبة إلى الخارج. مثل هذا فعلوه لي ولغيري مرات في

مدينتي. آخر مرة قذفوني من «حانة كيوييد» حوالي الثالثة صباحاً.

كنت قد أنفقت كثيراً على إحداهن ولم ترد، كما كنا قد إتفقنا، أن
تصحني في النهاية إلى منزلي. قد يطعنون الواحد إذا هو بالغ في
الإحتجاج، وامتنع عن الإنصراف. سأذهب لافتش عن فندق. غذا
سأتعرف على المدينة دون دفع ولا زحام. أتمنى ذلك لأن الموكب
الرسمي قد مر. توقفت سيارة الأمن.

- إيه أنت! تعال هنا!

دورية أخرى. قال الشرطي الأول:

- إركب.

- قبضوني وسرحوني.

- سرحوك؟ متى سرحوك؟

- منذ لحظات. إني قادم من المركز الرئيسي.

- معك بطاقة التعريف الشخصية؟

- نعم، هاهي.

وضعت يدي في جيبني لأريها له.

- اذهب إذن، لكن هذا ليس وقت التسكع.

- إني أبحث عن فندق.

إنطلقت سيارتهم ببطء عبر الشارع. قرأت على لافتة الإعلان:

«مطعم الشواء». دخلت. المطعم خال.

قال الشاب، قبل أن أسأله من وراء الحاجز الخشبي:

- أطفأنا النار. أنت ترى.

ثم أشار إلى مجمر الفحم الخامد. قالت فتاة تبدو سكرانة، جالسة

في أقصى القاعة:

- سد الباب وآجي هنا. ما تصدع شي راسك.

خرجت. معها الحق. لماذا لا يفل الباب؟ لقد تواجدنا. أنا لم أتواجد.

بعد حتى مع نفسي في هذه الليلة. الفروج هي التي تحكم في الليل.

السلطان في النهار للرجل وفي الليل للمرأة. أعصابي تتوتر، يداي

ترتعثان. ساقاي تؤلماني.

سألت رجلاً مر إلى جانبي:

- كم الساعة، من فضلك؟

- ليس عندي ساعة. آسف.

إنسان مهذب. يقال أن طبية الإنسان تظهر على ملامح وجهه.

بالذات في العينين. «عين المرء باطن قلبه». هكذا سمعت أو قرأت.

لكن ويوم يبدل الناس قلوبهم المريضة كما يبدلون أسنانهم المنخورة.

ماذا سيقل، مثلاً، عن إنسان زرعوا له قلباً من مادة لدنة أو قلب

خنزير؟

ساعة المتجر تشير إلى الثالثة وخمسن دقائق. من المحتمل أن تكون

الساعة الآن الواحدة صباحاً أو أكثر قليلاً. أشتاق إلى أن أعرف ذلك

الإشتاق الأول للتفكير. إنه شبيه بإنزلاق فرخ من بيضة. الإنسان

يوجد ثم يراقبونه ويفكرون من خلاله. يقولون عنه لبعضهم البعض:

«أسمعت ماذا قال منذ لحظة؟ إنه رائع هذا الولد». بعد ذلك يبدؤون

معه تلقين مبادئ الأخلاق. يقولون له، مثلاً: هذه لك. هذه ليست

لك، هذا قبيح. هذا جميل.. «حين يعي الأشياء بوعيه الخاص، يقول

لنفسه: «هاأنذا أحس بهذا هكذا. هاأنا أفكر. هذه لي. هذه ليست لي... هذا قبيح حقاً. هذا ليس قبيحاً. هذا جميل وهذا لا. «حينئذ يكتشف أنه يوجد مرتين: مرة قبل وعيه الخاص ومرة بعد أن يعي وعيه الخاص. أسرتي كانت تقول لي: «لقد كنت تصرخ كثيراً. كنت شرساً. كنت تحب هذا وتكره ذلك.» حين بدأت أفكر بنفسي عجبت أن يكون قد حدث لي ما حدثوني عنه دون أن أذكر منه شيئاً اليوم.

الساعة ما زالت تشير إلى الثالثة وخمس دقائق. غداً، إذا لم يصلحوها، ستشير إلى نفس الوقت. أنا الآن مثل هذه الساعة. لم أجد لي بعد أي مكان. كما لو أن زمني فات أو لم يات بعد. الأماكن محجوزة أو هي في إنتظار من يملك دفع ثمنها. أحياناً تناح لي الفرصة لكي أوجد بعض العلاقات، لكن الشرور التي وقعت فيها تصرخ في ذهني: «لا، إحذر جيداً. لاتثق في هذا الشخص. إنه شرير. ألا تراه كيف ينظر إليك؟ هذا المكان مشبوه. حذار أن تدخله، تذكر تجربتك الماضية. إلزم حدودك...»

تجارب الامس لاتصلح لليوم. تجارب اليوم لن تصلح للغد. أعتقد أن هذا ليس صحيحاً بشكل مطلق. إن هناك مفارقة: إذ قد يحدث تغيير زمني ولا يحدث في التجارب المعيشة سوى تغيير طفيف. أحياناً، أعيش إحدى التجارب أكون قد عشت تجربة تماثلها منذ سنوات.

جلست على مقعد جرائتي في الممشى العمومي. شاب يقترب

مني. يتنغم بلحن. لوحة تتأرجح في يده. خطواته لاتتماسك. سكران. توقف أمامي. عرض علي لوحته الزيتية.
- إشرها مني.
تطلعت إليه.

هل رسمتها أنت؟

- نعم، أنا. سأسافر إلى هولاندة لأتابع دراستي هناك في معهد الفنون الجميلة.

تاملت اللوحة: فتاة عارية. شكلها وحشي. لها عيان كبيرتان تتحديان من ينظر إليها.

- آسف. ليس عندي نقود.

- كم تعطيني؟

- ليس عندي نقود، ولا مكان لي أضعها فيه. أنا لست من هنا.

- أنا أيضاً لست من هنا. أنا من تطوان. هات ماعندك وأعطيها لك.

- أنا آسف. ليس عندي شيء.

- كم الساعة الآن؟

نظرت إلى ساعة المتجر.

- ليس عندي ساعة، وساعة المتجر تلك عاطلة.

التفت نحو الساعة وقال:

- هل عندك سيجارة؟

- آسف، نفدت سجائري.

هل تصحبني؟ سنبيع هذه اللوحة ونشرب معاً في حانة.

- شكراً. إنني متعب. أفتش عن مطعم وفندق.

نظر إلي بهزة للحظة. إنصرف. سمعته يردد: «للمطعم لك،
للفندق ولأسجائر، ماذا عندك إذن؟».

هبطت إلى السوق الداخلي. في مقهى «سنترال» استرخيت فوق
كتبة. وجبة طاجين البطاطس باللحم التي أكلتها في أحد مطاعم هذا
السوق تنعجن في معدتي الآن شيئاً. لم يكن الطعام جيداً. لم أحبب أبداً
الطعام متعة لذاته. أحب دائماً الطعام من أجل المتع الأخرى الممكنة
من خلاله.

الفندق عامر. تعال غداً باكراً واحجز لنفسك غرفة. هذا ما يقوله
الفندقيون في هذا السوق الداخلي. لو كانت عندي نظارة لونها غامق
لنعت قليلاً جالساً فوق هذه الكتبة. بعض الحيوانات تنام وعيونها
مفتوحة. لماذا لا يستطيع الإنسان أن ينام مفتوح العينين؟ سمعت أن
هناك ناساً يستطيعون النوم وعيونهم مفتوحة. قد يحتاج هذا إلى إرادة
عالية. كل شيء ممكن. لكن كيف؟ إن كيمياء الأشياء والناس
صعبة. هناك أنواع من الموسيقى أحب دائماً سماعها، لكن الغريب هو
أن نفس الموسيقى تحزنني تارة وتفرحني تارة.

دخنت كثيراً. شربت قهوة بالحليب ثم ماءً معدنياً. لا أستطيع الآن
حتى أن أنظف أسناني من الحموضة التي تضايقني دائماً، بعد الأكل،
في فمي.

كان يجب علي أن أضع في جيبتي فرشاة الأسنان والمعجون قبل أن

أسلم حقيبتني إلى أمين مستودع القطار. لم يبق في القهوة سوى ثلاثة
شبان منقوشى الشعر. إثنان أجنيبان يتكلمان بالإنجليزية والثالث
مغربي يتكلم معهما بإنجليزية رديئة. كان الهيببان يتلفظان ببعض
الكلمات المغربية وهما يبسمان أو يضحكان

«مزيان بزاف». «الحمد لله». «إن شا الله...».

حين سمعت النادل يقول لي: «إيه! سبحان الله! أفق من
فضلك». كنت أنا الوحيد في المقهى.

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^

الإقامة هنا، في فندق «لاكلييريير» La Clairiere رائعة، لكنها فوق
مستواي المادي. كل نزلاء الفندق مصحوبون إلا أنا. جلست في
الشرفة المطلة على هاوية مشجرة. هواء هذا الصباح يهب محملاً
بمزيج من روائح هذه الغابة. صاحباً الفندق فرنسيان، الرجل كهل.
زوجته تبدو أكبر منه. هي مليئة بالحيوية، وهو يقضي معظم وقته يقرأ
الجرائد أو ينظر إلى برامج التلفزة الإسبانية. الخادمة فتاة مغربية. تبدو
محافظة في سلوكها. هاهي آتية بإفطاري. صباح الخير قالتها بصوت
هامس. حينئذ ناظراً إليها. تورد وجهها الشاحب. تكثفي بأنصاف
النظرات. بشرتها بيضاء والرغب وأفر على ذراعيها. يداها موردتان
لامعتان. ربما كانت تغسل شيئاً في ماء ساخن. مشيتها غريبة حين
أدبرت. مشت جانبياً سائرة مؤخرتها بالصينية. بدأت أتناول فطوري
وعيناي على القاعة منتظراً ظهورها لأطلب منها المنفضة. ناديتها،
إقتربت مني أكثر خجلاً من السابق. شفتاها مزمومتان. نظرتها
طفولية. وقفت شابكة يديها وراءها. ذكرني وجهها بوجه فتاة في لوحة
قوطية.

- منفضة، من فضلك.

قالت إيماءة رأسها:

- نعم.

خطت خطوات إلى الوراء قبل أن تدبر في مشيتها الغربية محاولة أن تستر بيدها اليسرى جانب ردفها. غريبة هذه الفتاة. مؤخرتها تبدو عادية. لماذا إذن تحاول سترها؟ أتكون قد حدثت لها مشكلة مؤلمة مع مؤخرتها؟ مشاكل المؤخرات لأصحابها وليست لي.

حين وضعت لي المنفضة كانت يدها اليسرى خلفها. أنا أيضا شكرتها بحركة من شفتي ورأسي حتى أعفيتها من الرد بالكلام. لم أتابعها بنظراتي حتى لا أخرجها. كل شيء يمضي هنا بهدوء وبأقل ما يمكن من الكلام. الغابة عرس. شقشقات الطيور، شذوها وأنسام العبير. العالم الصاخب في غياب تام هنا. أمس، حين تمشيت في هذه الغابة، كنت أسمع إنكسار أوراق الأشجار وإنسحاقها تحت قدمي وعبير الأرض يضمخني. لم يسبق لي أبدا أن استنشمت مثل تلك الرائحة العتيقة التي ظلت مختزنة عشرات من فصول الخريف. مارايت من قبل مثل ذلك البساط البني من الأوراق. وحدثني تلك بدت لي مغربة بالحياة والموت.

إنتابني شعور بأن أكون وحيدا وألا أكون. أن أعود إلى المدينة ولا أعود. فكرت أن الإنسان، في مثل هذه العزلة، إما أن يسمو فيها إلى منتهى العقل أو يسقط في منتهى الجنون.

السما صافية في هذا الصباح. حين تغيم تخيفني. إنها تبدو لي مثل صحراء ثلجية لامتناهية. هل أبدا في قراءة «معنى القلق»

لكيركجور KIERKEGARD أو «الزمان الوجودي» لعبد الرحمان بدوي؟ لقد تخلّيتُ أمس عن الاستمرار في قراءة «شيطان في الفردوس» لهنري ميللر. إن حياتي هنا، على هذه الوتيرة، تجعلني أعيش في شبه ماضٍ محض. الحاضر ينحسر كل يوم. المستقبل يكاد ألا يكون له أي معنى. كأنه مجرد أحلام يقظة. كنت أعتقد أن الملل يصدر عن الغباء وحده. إن هذه الوحدة ستكسبني عزاءً تافهاً. لو أنني كنت عبقريا لكان لهذه الوحدة تبرير ومعنى. لكن، مع ذلك، فأنا أحبها مع قليل من الكراهية للحياة يزداد كل يوم ضجرها. فن العيش أم نضاله؟ لا أدري بعد. الغباء هو أن يكون لكل سؤال جواب.

قرأت حوالي ساعة في «الزمان الوجودي». ثم ذهبت أتجول بعيداً عن هذه الفرجة. أريز الصراصير في كل مكان. يتعاطم أكثر في العراء الذي لا ظلال له. الشمس اليوم تنشف الحلق وتدوخ. سلكت طريقاً منحرفاً عن طريق «رأس سبارطيل» لم تكن هناك، في مدخل الطريق، أية علامة للدلالة. كانت طريقاً منحرفاً معبدة بالزفت. منذ سنوات لم أتمش في مثل هذه الطريق الخالية من مرور السيارات والناس. الأشجار والطيور وصرصر الحشرات وهذه الشمس غير المخيفة. ماهو مخيف لي، في مثل هذه الوحشة، هو الإنسان الوحش.

إنتهيت إلى ساحة صغيرة. قبالتها مدرسة ابتدائية. المقاعد تبدو، من خلال النوافذ الزجاجية الغبراء، المكسور بعضها، تبدو مهجورة هذه المدرسة. بيوت صغيرة منشورة بعيداً بين الأشجار. ظهر طفل كأنه نهض من الغبار. يدنو مني على مهل. عيناه في عيني مسكينتان،

جائعتان. مدّ لي يده كفصص جاف:

- أعطني «التحريرة» (صدقة العطلة).

لاشك أنه يدرس في هذه المدرسة. أعرف أن كلمة «التحريرة» لا يستعملها إلا أطفال الكتاب. أعطيته خمسين فرنكا. طفل آخر وآخرون فاجأوني كأنهم كانوا يلعبون معي الإستغماء. إقترحوا مني يطلبون التحريرة. وزعت عليهم نقودي الصغيرة. سألتهم عن اسم المكان. أجابوني صارخين كما لو أنني طلبت منهم جواباً جماعياً: «هذي مديونة». قرية مديونة إذن. طاردوا بعضهم بعضاً راقصين في الهواء صارخين. غريب هذا العالم. إما أن تجد الناس دفعة واحدة في ظروف غير منتظرة حتى تمل منهم أو لا تجد أحداً.

عدت من حيث جئت. طنين الحشرات يتعالى من كل مكان. زوج من الحجل طار على مقربة مني. السراب في عيني. في وسط الطريق كانت هناك، هذه المرة، سيارة واقفة. لم يكن داخلها أحد. دمدمات رجل وامرأة تصلني من بين الأشجار. صوت المرأة قال بإنزعاج:

- انتظري، انتظري حتى يمر.

أشجار الصنوبر الصغيرة كثيفة. إنهما يريانني ولا أراهما. في السماء طائران أسودان، يحومان وينسابان في هاوية السماء، يصعدان ويتقاطعان، يحلقان في اتجاه واحد، يتماسان ثم يتقاطعان..

ربما الآن، بعد أن إبتعدت عن مكانهما، سيلج لحم الرجل في لحم المرأة بإطمئنان وحرارة. ستفوح رائحتهما في هذا الهواء الساكن الطري. الإنسان للإنسان والطير للطير.

في طريق عودتي إلى الفندق، رأيت أطفالاً واقفين على حاشية الطريق يرفعون في أيديهم للبيع - كلما ظهرت أمامهم سيارة: نوى شجر الصنوبر في أكياس بلاستيكية، تيناً، ثمرات التين الشوكي، نعنعاً، باقات زهور وحشية، ثمرات الدوم، الدقائش مشدودة مناقيرها بريشها حتى لاتعض. كل واحد منهم، تفصله عن الآخر مسافة. واحد منهم كان جالساً على صخرة يدخن سيجارة بنشوة، أمامه باقات زهور. لم يكن يرفع باقة إلا عندما يرى في السيارة امرأة إلى جانب رجل. كانت هناك عجوز بائسة تستريح مستندة إلى صخرة حاملة على ظهرها رزمة حطب كبيرة. تأملتني بملامح مكدودة وأنا أمر أمامها. فكرت أن أشتريها منها وتتركها هناك لأريحها من تعب حملها، على الأقل في هذا اليوم، وبيعها في أحد الأفران في المدينة. غير ممكن. إن نقودي محدودة. العطاء بهذا الشكل لا نهاية له في هذا الوطن. قد تحملها حتى وإن دفعت لها ثمنها بعد أن أختفي.

السيارات تمر، الأطفال يرفعون بضائعهم الصغيرة، المرأة تستريح إلى الصخرة وأنا ماض إلى الفندق - المحارة. تساءلت: فبن العيش أم نضاله أم مزلة العالم؟ إن الإختيار رهيب.

بعد الظهر وقفت فوق الصخرة العالية. أحسني الآن أستر نفسي الضائعة. المدينة كلها أمامي. لم تعد مغربة. إنها مثل قلعة مساجين. كنت أحسني فيها مجرد كائن بسيط. أشعرتني مسروقاً أينما كنت. هنا موجود لنفسني. كل ما حولي الآن يؤكد لي وجودي: قبور سيدي عمار، الصخور والأكواخ، البحر والمدى الضبابي والسماء. لم

أعد مثل نملة يهددها الزحام بالإنسحاق... إحساس غريب يباغتني الآن. كيمياء نفسي تتغير. رأسي يتكهرب ويدوخ. خفقات قلبي تعنف. أكاد أفقد وعيي. أحسني أغرب مما كنت في المدينة. نفي مخيف يخترقني. نظرت إلى الهاوية. لم أستطع أن أصرخ لكي أطرده شعوراً طاغياً يلح عليّ بأن أقذف نفسي إلى هذه الهاوية. ارتسم أمامي ظل إنسان، تلفت ورأيتي بسرعة رافعاً يدي معاً في دفاع. لم يكن سوى ظل وهمي. إلتعدت عن حافة الهاوية مرتجفاً. مسحت وجهي بكم قميصي. نزلت لاهثاً من على الصخرة شاباً بنتوءاتها مثل حيوان يمشي على أربع. أحسستني خائراً، خائفاً. عدت إلى الفندق لأحمل حقيبتني وأعود إلى المدينة.

- ٣ -

اشتريت ساعة. أحياناً أحس جسمي جديداً كساعتي هذه. استغرق مشي من السوق الداخلي إلى شارع محمد الخامس عشرين دقيقة. تخطتني امرأة حُبلً، قصيرة، تمشي جيداً. تخطاني رجل وامرأة يتكلمان بحدة. يسرعان في المشي. هي منفوخة مؤخرتها وهو منفوخة بطنه. مدّ عجوز يده اليمنى:

- صدقة لله يا ولدي!

أعطيته قطعة نقدية. يده اليسرى ماسك بها منديلاً أحمر مرقطاً بالأسود والأبيض. عيناه قرمزيتان، مريضتان. أحسست بانعكاس مرضه على عيني. وخزات وتدمع يضرب رؤيتي. أفضل الموت على أن أكون في مثل حال هذا الإنسان. رجلان واحد يرتدي جلباباً والآخر ستره وبنطالاً، يمشيان متلاصقين ويدهما مشبكتان. تضامناً؟ أخوة دينية؟ بدويان يخافان أن يضيع الواحد عن الآخر في المدينة؟ لست أدري. شابة وشاب يتجاوزان. يمشيان متمايلين. تعانقه وتلاطفه بحركات رأسها وملامسات يديها. موجودان لنفسيهما. المارة يلتفتون إليهما. توقفوا وتعانقا. يبتسمان. الفتاة تبدو أكثر إيجابية من الشاب في المغازلة.

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^

دام سيري من الشارع الذي كنت فيه إلى حيث أنا عَشْرَ دقائق:
 سأحس نفسي لأحس بالزمن يختنق. أحس بصدري كطبل مشدود
 جيدا جلده والثواني تمر. تضيق في العدة كذرات الغبار في شعاع
 الشمس ينسرب من ثقب إلى غرفة عاتمة. يستحيل القبض على حركة
 الزمن بهذا الشكل الصبباني وحبه مثلما يمكن، أحيانا، أن يفعل
 الإنسان مع نفاياته وأصواته المعوية. الزمن موجود. يخترقني، يمتص
 جسمي المليء بالأعضاء التي تقرقني قذارتها وتخيفني أشكالها. أن
 أحس الزمن أو لا أحسه، هذا لا يغير حركته. لا أذكر متى فكرت فيه
 لأول مرة. سمعت ذات يوم أخوين يتحدثان: الأول في الثالثة من
 عمره، الثاني في الخامسة. سأل الأصغر:

— متى سنذهب إلى طنجة؟

أجاب أخوه:

— حتى ننعم ونفبق. ننعم ونفبق ثم نذهب إلى طنجة.

ربما هكذا كنت أفهم الزمن في عمرهما. مرة واحدة أذكرها
 بصفاء ذهن.

سألت بخوف في الظلام:

— ماما، متى سينتهي هذا العواء والنباح؟

— ثم ويختف العواء والنباح. ثم لا تخف من شيء، إننا هنا
 معك.

فهمت من أمي أن النوم يقتل الخوف. الخوف لا يوجد إلا حين
 أفكر أنه موجود. مجرد صوتها يحميني من العواء والنباح في الظلام.

صوتها أيضا يسكت النباح والعواء. الظلام أخافه حتى بدون نباح
 وعواء، لكن الخوف يكون، أحيانا، أقوى من النوم، أقوى من صوت
 أمي في الظلام. صوتها كان يجعلني أحلم في تلك السن. أناديها من
 أجل لاشيء. أناديها فقط لكي أسمعها تتكلم. حين كثرت الأصوات
 من حولي ضاع صوتها كما ضعت في الزحام في اليوم الأول من وصولي
 إلى هذه المدينة. «جثث، رأيت، انتصرت» (بولبوز قيصر). جثث
 ورأيت ولم انتصربعد. لم يعد في وسع أمي الحنان ولا العتاب. حتى الآن
 فكرة الزمن غامضة في ذهني. إحساسي به أقوى من فهمي له. أنا الذي
 أخلقه أم هو؟ أستهلكه أم يستهلكني؟ أم كلانا يخلق الآخر
 ويستهلكه؟ أذهب فيبقى أم يذهب فابقى؟ كيف يمكن إبطاؤه أو
 إسرعه؟ أهو ممكن إيقافه بشكل ما؟ أدركه مثل الأشياء والأشخا. إذا
 أنا لم أفكر فيها لا توجد. إذا أنا لم أفكر فيهم لا يوجدون. الثلج يطفئ
 النار والنار تذيب الثلج، لكن ما أنا بثلج ولا أنا بنار. هكذا يظل الزمن
 هو الأقوى.

تأملت فخذي فتاة ممثلة من الخلف. كانت جالسة على مقعد
 قاس. الخطوط الوردية في فخذي واحدة كندوب. كانت تضع ساقا على
 ساق. هذا ما تقوله الخطوط الأفقية في فخذي اليمنى.
 طفلة تمسكها أمها قدام شجرة الرصيف. قالت لها:
 — بولي ولا تخافي.

انفجر شيتها وفار شلال صغير في حوض الشجرة. أمها تبتسم لها
 وطفلتها شبه خائفة تبول وتنظر إلى الناس الذين يرونها. جرح، جرح

مفتوح يفور ويفور. فكرت في وردة دون أشواك. لا قيمة لوردة دون أشواك. فكرت في أشياء كثيرة لا وجود لها إلا في خيالي، وجودها في الواقع يوقف ديمومتها وجمالها الخيالي. هناك أشياء تولد دون جذور. من الأحسن ألا توجد الأشياء التي لا جذور لها. إن أيام العاصفة كثيرة. لكن من يقوى على قهر النمو؟

توقفت قرب واجهة خاصة بالآلات التصويرية والزمنية. ساعة المتجر ما تزال عاطلة. ذات يوم، ذات لحظة، سيحدث مثل هذا التوقف بشكل ما في جسمي الذي يقيثني كلما زاد جنوني به. يقيثني أكثر من الأشياء التي يبتلعها ويرأها. إنه يحول ما هو طري إلى عقونة. أحيانا، أداعبه، يداعب نفسه، أحبه، يحب نفسه، أفركه، يفرك نفسه، أعامله كما تعامل أم صغيرها في حوض الغسيل. لم أعد أذكر كيف كانت تعاملني أمي. لون الورد للورد والطفولة للطفولة. حنان أمي يشبه أحد أحلامي. لا أتعلق بالأحلام. الطفولة للطفولة والأحلام للأحلام.

كهل يتأمل السيقان الجميلة. فرحته تزداد عندما تمر فتاة لابسة ميكرو-جيب. يصعد نظراته ببطء حتى يقف عند الحصر. يهبط نظراته بنفس التباطؤ إلى منبت الساقين. بين حين وحين يدخل يده اليسرى في جيب سرواله المترهل، الوسخ. يشمك يديه وراءه للحظة ثم يعيد يده اليسرى إلى جيبه كلما مرت قدماه فتاة جميلة. انحنت فتاة سمراء ميكرو جيب على واجهة المتجر.

انحنيت: نصف ثباتها (سليها) مبتلع في شق استها... أم م...!

لم تعجبني هذه اللقطة. جمالها وحشي وما رأيته أكثر وحشية. اقترب شابان من الكهل، عداد الزمن والسيقان. أنا واقف قدام الواجهة قرب الكهل. سأل الأول بالاسبانية:

- كي أورا ليس. منيور، بور فافور؟ Que hora es, señor por favor. -

صون لاس أوشو إي طريس مينوتوس Son las ocho y tres minutos.

قال الشاب الثاني المغربي لزميله:

- ألم أقل لك أنه يستطيع أن يحدد لك حتى الثواني!

- هل أنت متأكد أنه لا يملك ساعة في جيبه يتحسسها مثل

العميان؟

- أبدا. لقد فتشه بعض الشبان، مزاحا، فلم يجدوا عنده أية

ساعة. هناك شيخ مغربي آخر يمارس نفس اللعبة الزمنية، لكنه يطلب مقدما خمسة فرنكات.

شكراه وانصرفا، هزّ لهما الكهل رأسه بمودة. فكرت: أهذا

ممكّن؟ نظرت إلى ساعتني الجديدة: الثامنة وست دقائق. دنوت منه.

يتأمل الآن بلذة مجنونة ساقي فتاة - ميكرو جيب تمر قدماه على

مهل. ردفاها يرقصان رقصة الرومبا. أدخل يده اليسرى في جيب

سرواله. شاركته في اللعبة البصرية. باغته قبل أن يستأنف جولة

أخرى. إن السيقان العارية لا تنتهي في هذا الشارع.

- بور فافور. منيور، كي أورا ليس؟

يداه الآن وراءه. حك قليلا مؤخرته وما بين فخذي. قال بصوت

هامس ودود:

- صون لاس أو شو إي أو شو مينوتوس minutos Son las ocho y ocho.
- جراثياس Gracias.

حياتي بهزة من رأسه. هذا الإحساس الدقيق ممكن إذن، لكنه يتطلب التكريس لهذا التركيز الزمني. فكرت: أين يمكن لي أن أذهب الآن؟ الغرفة حجزتها. الطعام أعرف كيف الحصول عليه بثمن يلائم ما عندي من نقود. ما ينقصني، الآن، هو اللمس اللذيذ لكي أنسى فيه نفسي هذه الليلة. لقد طارت دهشتي. الشارع يموج بالنمل البشري. أريد أن أفقد توازي في نشوة اللمس مع نهدين فتيين. شخصان يتخاصمان:

- إنه يلمس زوجتي على مرأى مني. أين هي الشرطة؟
يتخانقان.

- انظروا كيف يضربني.

الناس يتسابقون من كل مكان في الشارع نحو مكان الشخصين المتعاركين. بعض السيارات توقفت. صف طويل من السيارات تزعق. كثير من العابرين في الرصيف الآخر توقفوا ليتفرجوا عن بعد. فكرت: الفروج للفروج ثم استأنفت سيرتي.

- Festival-BAR أتريد مشاهدة فيستفال -بار؟

- فيستفال - بار.

إنه في حوالي الرابعة أو الخامسة عشرة هذا الغلام، لكن ينبغي أن أحذر من جميع الأعمار.
- ماذا في فيستفال -بار؟

- كل شيء

- كل شيء؟

- نعم، كل شيء.

- ما هو كل شيء؟

- فيه كل شيء. سيعجبك كثيرا. ستري بنفسك. إنه أحسن مرقص في طنجة.

أعطيته خمسين فرنكا.

- هاك. لا أريد أن أذهب الى هذا المرقص.

ما يحدث، في هذه المدينة، يجعل الانسان يؤمن بوجود الأشياء والأحداث كما هي أو لا يؤمن بوجود شيء. أخذ الغلام القطعة النقدية. فحصها. لم يلح على مصاحبتني. شكرني وابتعد. أوقفت سيارة أجرة.

- «فيستفال -بار»، من فضلك.

مع من؟ أمعي أنا؟ إن لعبة فتاة الثلاثين درهما لن تُعَادَ معي. نظر الي السائق بفضول. قلت له في خيالي:

- ماذا يدور في رأسك أنت أيضا يا وجه الفأر؟

- أهو بعيد هذا الحان؟

- ليس كثيرا.

أف! ها أنا قد انزلت في قشرة موز. ما كان لي أن أسأله. إنه الآن قد يجعل المسافة أبعد. هذا ما يفعله معظم سائقي سيارات الأجرة مع الغرباء. مثل هذه التجارب ينبغي للإنسان أن يمارسها مع الناس كما

يعقد رباطة عنقه. فتاة الثلاثين درهما أكانت حقا تنبيهها كافيا لآخذ
حذري؟

في المنحدر أحسست برعشات لذيدة ذكرتني بطفولتي: الركوب
على حمار، التارجح في الهواء الطلق على الأرجوحة، الجلوس فوق
كرسي هزاز والانحناء إلى أمام على مهمل والتفرغ في الليالي الماطرة
الباردة تحت ملحف.

شرطي يحرس قدام الباب. حان مامون اذن. دفعت للسائق
درهمين. لم يغشني كما ظننت. صفعني نور ملون قوي وهواء فاسد
داخن. قال أحدهم لرفيقه:

- إنني أختنق هنا.

قال زميله بالاسبانية:

- كأننا هنا في حمام مغربي، رغم الهواء المكيف.

صاح النادل المغربي بفرنسية لا قواعد نحو لها:

- تقدموا إلى الامام من فضلكم. الوقوف لدى الباب ممنوع.

قال شخص بدين بصوت نسائي:

- لكن لا يمكن التقدم الى الامام أكثر من هذا. كيف يمكن؟

وقفت وراء شابين قدام المشرب. تحرك أحدهما قليلا فاسحا لي
مكانا إلى جانبه.

- يمكن لك أن تقف هنا.

تطلعت إليه وشكرته. أهو لطف منه أم هي دعوة؟ سألني الحاني:

- ماذا ستشرب؟

- أعطني «أمسطيل» باردة.

أوقف شخص، جسمه رياضي، جهاز الموسيقى. صاح في
الميكروفون بهياج:

- استهلاك المشروبات اجباري هنا وإلا سنضطر أن نضع من لا
يشرب خارج الباب. أعيذ عليكم بأن الاستهلاك اجباري هنا.

قال النادل لشاب مغربي:

- أسمع ما قاله صاحب الحانة أم لا؟

بصقت على صاحب الحانة في خيالي. بعض الأشخاص يتابعون
الرقص دون إيقاع. موجات النغم لا تتوقف في أجسامهم. يُجامعون
الفرغ بحركاتهم. عاد الإيقاع. تنساب الأضواء التجريدية المائية
هابطة صاعدة على الجدران والوجوه المخمورة. تتشكل، تشع بقوة ثم
تخفت و تقوى، تتحول، تتموج، تذوب كالأصباغ. أحيانا تستحيل
الحركة من كثرة مايزاحمون بعضهم بعضا. يحركون مؤخراتهم
ويهزون أكتافهم حينما لا يستطيعون الحركة. تدور الألوان وتدور.
يدورون في عناق حميم. وجوههم حمراء صفراء زرقاء.

LICHT! MEHR LICHT!

(نور! مزيدا من النور!) تضييع في الوصف وجوههم مثل محاولة
القبض على الزمن. امرأتان جالستان في أقصى القاعة. يتعانق
الراقصون بحب. ينسابون على بعضهم بعض كالأضواء المائية على
الجدران. إنهم مثل لون على لون يذوبان. كل جسد يحاول الغوص في
مثيله. تارة يرفق يعنف شيئا فشيئا وأخرى يعنف يرفق شيئا فشيئا.

بعنف لا يرفق ويرفق لا يعنف. الايقاع والشراب والحب زوجاً زوجاً
وسراويل لاجيوب لها مشدودة، شفاقة كمشدات النساء الرشيقات.
مغني الحانة مصبوب في ثوب سهرة نسوي أبيض ووردة حمراء تجمل
صدره. قال الشاب إلى جانبي للحاني:

— أعط بيرة أخرى للسيد.

تلقت نحوه.

— شكراً.

صار اللطف دعوة. قال الشاب بالاسبانية:

— وحدك؟

— نعم، وحدي.

صوته مثل الخلاوة التي تُغني. أخرج علبة سجائر ذهبية ومدها لي.
سحبت واحدة. شربت بلذة. داخلي الحار يتدغدغ، يتلطف كنسيم
أزرق، أخضر في يوم صيفي. قال الشاب:

— أترقص؟

ها أنا جاء دوري. ابتسمت له. مدّ ذراعه برفق على كتفي.
خاصرته. «السلو». داخلي يهدأ أكثر فأكثر. وضع يدي برفق على
مؤخرته. قال:

— إنك رائع.

ابتسمت له. يجعلني أخصره، أضمه إليّ. يَفْتَعِرُ داخلي لذّاذة.
يباسمني وأباسمه. لأول مرة أرقص بهذه الحميمية. كل شيء

هنا: EL PODER ALEGRE LIFE IN LOVE

وضع طبيعي في وضع غير طبيعي. حركاته أكثر من امرأة غنوج.
باسني على خدي برفق. مدّ لي خده. تدغدغ فمي على بشرته الملساء
وأنفي تعطر. تباسم بعذوبة. الكرة الضوئية التجريدية اللون في
السقف تدور وتدور وتدور. شعاعها يدور في العيون، يُجَمِّلُ الوجه.

LICHT! MEHR LICHT!

أبهذه السرعة يتم هذا الشكل من العناق الانساني هنا؟ الأخضر
يجمل العيون أكثر. فراشات الاضواء ترفُّ على الوجوه والجدران.
الشرارات الضوئية تنطير على الوجوه مثل الحرائق. تصفعها مثل
البرق.

LICHT! MEHR LICHT!

اشكال الاشياء على اشكال الأشخاص تدور لامعة. كل شيء هو
ليس هو ولا معنى للقبض على شيء. زحام شوارع المدينة أعدمني.
عمق غربتي الزحام. هنا يخترقني أكثر من الزمن حين أفكر فيه. تتلوى
الاشياء، تتحرباً في اهتزازات الضوء البرقي. أعدم هذه الاشياء ونفسي
معها، من خلال الزمن اللامجدي، أثور عليه، لكن مسألة طبيعية
أقوى توقفني. لا شيء يهم الآن. عمق الحياة لا عمق الموت. ليس لي
الآن الا هذا الترفق بحياتي من أجل نضج طبيعي، لكنه ينقلت. في كل
لحظة أنعدم. لا أستطيع أن أمنع لحظة من لحظة العدم. زمني ينخرني
كالسوس في الخشب. لأبد من وسيط بين الزمن والمطلق كما هو بدهي
قتل الحمار ليعيش الحيوان الضاري. التصلب الآن في ذهني يسترخي.
أنا الذي أخلق المي. أنا من أعدمه. حرُّ أن أحسه أو لا أحسه قلقي

هذا. نجوم الاضواء تصفعني الآن، تُدَمِّعُ عيني والوجوه قبيحها وجميلها. نورا مزيد من النور لكل الوجوه! أحسني مثل ريشة. هيا! شيئا من الحمق من أجل ايقاظ شيء من العقل بـانفسي. يا علي، علي، علي، علي!

تركت وعيني ينفلت قصدا مني كيما استجيب للنقلات برشاقة مع هذا المحدث. فمي يمتلئ بالعسل الانساني. يشدني الشاب الرقيق إليه أكثر فأكثر. يدي على كتفه و الأخرى تحس خفقات ربوته. أنزهها على ربوته الدافئة. العسل الانساني يسيل في فمي. الخد على الخد والفم يلامس شحمة الاذن ترعشها ذبذبات الأنفاس. النفخات الرائحة تدفئ صليبي أكثر فأكثر. داخلي مربعات من السكر تنهار ذائبة في فنجان قهوة سوداء ساخنة معطرة بماء الزهر و القرفة. عسل فمي يسيل ويسيل. قال:

- هل أروقك؟

- أنت أكثر من رائع.

إذا لم أبتلع سيفي فمي. أخاف ألا أعود إلى نفسي. أهو يحس نفس ما أحسه؟ عيناه حالماتان. كل نفخة في أذني تملا فمي بلزوجة اللسدة المبتغاة. توقف صليبي أكثر فأكثر. تبدل الايقاع دون أن يتوقف. انضمنا إلى حلقة. انسحب بعضهم. الأغنية المانية. تماسكوا بدأ في يد. يرفعون الأرجل على طريقة «الكان الكان». فكرت: إننا عائلة. لم أعد أفكر إلا في هذه الحلقة العائلية. مع كل حركة أتيقظ أكثر فأكثر. يتمهل الايقاع. عشرات العيون ترمش.

انسبق «الجيرك». انفرطت الحلقة مثل عقد ينقطع خيطه. قال الشاب:

- هيا! سنشرب.

LICHT! MEHR LICHT

- انسحب الشيوخ من حلبة الرقص. عادوا إلى أماكنهم. يبدو أن انعكاسات حركاتهم لا تقوى على قوة هذا الايقاع الشاب. ذات يوم لن استجيب أنا أيضا لانعكاسات هذا العالم... ها أنا في فيستفال - بار. كان على حق ذلك الغلام. «سيعجبك. ستري بنفسك. سيعجبك كثيرا». فإني أن أعطيه أكثر من تلك القطعة النقدية. هذا لا يمكن الآن. ما يحدث لا يسترجع بنفس الشكل والرغبة إلا في الذكرى. لا أومن بمثل هذه الذكرى. أشرب، أدخن، أندغدغ حتى العظام بلمسات هذا الانثوي الرائع. إنه نموذج الجنسيين المثليين. «السلو». من جديد هذا الايقاع يدعو إلى العناق الدافئ. قال لي شيخ:

- أتريد أن ترقص؟

قبل أن أجيبه أمسكني الشاب من يدي وسحبني إلى حلبة الرقص. يده متدبكة في يدي. فكرت: يغار. بسمت عيوننا. تعانقت. ضحكة هستيرية تفجر الأفراح. كرة الضوء اللازوردية تدور في السقف تدور ونحن تحتها ندور. ذهني يدور في الرغبة و النجوم اللازوردية تحمم عيني. إنني وعي دون كثافة. نورا! نورا! نور يولد جنونا لا يستريح من القبض على نور لا يغمره الظلام.

تنبثق الأشياء كفقاعات. الأشخاص يظهرون ويختفون هنا. إنني لا أكثر من إحساس في هذه اللحظة. لا أستطيع التفكير في الشيء و فكرته في آن. كل ما أراه وأحسه أشياء تطفو. الأوضاع الآن أكثر حميمية. تنسحق الشفاه. الضوء يخفت. تشد الأيدي بقوة على ما تمسكه من الجسد. شدّ أمام - شدّ وراء. دخلت امرأة قزمية صحبة شابين. يلاق! زجاجة شامبانيا. الرغبة المتدفقة تسيح على الزجاجاة والطاولات. الأصابع تنغمس في السائل وتبارك الجباه. حواء وآدم يقسمان التفاحة. شجرة المعرفة من أجل عالم آخر. دخلت فتاتان وشاب. صرخات وقهقهات وصخب يتولد وينتهي بنفس السرعة التي يتولد بها. قال الشاب بصوت راعش حالم وراغب:

— أنصعد الآن إلى فوق؟

اندهشت: قلت له:

— فوق؟

— نعم، فوق.

— أين؟

— إلى فوق.

— أي فوق؟

— فندق الحانة. فندق دانتى هو فندق الحانة. بعد ذلك سنعود لنشاهد عرض تعرية الليلة.

ضحكت عيوننا. يزم شفثيه بلذّة متراخية. ينوم عينيه برقة بالغة. ركز نظراته الناعسة على عيني. أهدايه لا ترمش. لسانه يطل من خلال

شفثيه المزمومتين. يطل ويختفي لسانه. لسان أفعى. يتحكم في عضلاته ووجهه وجسمه بدقة مغرية. ساعشقه إذا هو استمر يغازلني. ساهرب من هذا اللطف المنوم حتى لا أسقط في هذه الإرادة المرحّة. قلت:

— انتظري. سادخل المرحاض.

عبرت القاعة مزحوما. نقلات الراقصين تدفعني دون اعتذار. قال صاحب الفتاتين لشاب:

— أرجوك، لا تلمسهما.

قال الشاب السكران:

— لكن هذا لا يمكن، إنك تراقص فتاتين وحدك. أترك واحدة لسواك.

— إنهما معي، وسأراقصهما وحدي.

خاصرهما معا. ضحك كثيرون وزجاجة شامبانيا أخرى تفتح. الصخب يعلو وينخفض.

— هذا لا يمكن. رجل يرقص مع اثنتين.

ظل الشاب يراقصهما بعناد. دفعت باب المرحاض. وجدت هناك ثلاثة يمشطون بحركات أنثوية أمام مرآة صغيرة. يسوون ملابسهم الضيقة الشفافة. يمشطون بالتناوب. أحسست بلذّة الافراغ الساخن. تفور البيرة حارة من جسمي. شخص إلى جانبي يطل على شيئي بلهفة باسمّة. قطرت شيئي بعناية. لذّة التقطير أروعشتني. ظل هناك المشاطون أنفُسهم. إنها لعبة التمشيط. جعلت يدي قريبة من

شيئي حتى تحميه. خفت أن تنتاب أحدهم هستيرية القبض على شيئي بعنف. الشاب يرقص مع شاب مغربي سرواله لا جيوب له. فكرت: هاهي فرصتي لأهرب. سألت عما ينبغي لي أن أدفعه. - كل شيء على حساب الشاب الذي معك.

هذا رائع. هو لي وأنا له. هذا ما صرناؤه الآن. غيبوبة العري في فندق الحانة لا تروق لي. عرض التعرية قد أعود لمشاهدته في أمسية أخرى. لن أضيع فرصتي هذه للهرب. أمسك وجهي شاب بحركات أنثوية بكلمات يديه كأنه يمسك فرخا عاجزا عن الطيران. قال لي بالاسبانية: - إنك وحدك، أليس كذلك؟ إنك وحدك.

تطاولت شفتاه نحو شفتي كشرح ديك يتفل. أبعدته عني بلطف.

- معذرة، إني مصحوب.

- أووه! مصحوب. لحظة. تعال لتشرب معي شيئا باعزيزي. مجرد لحظة وكفى.

- أرجوك، لا أستطيع.

نظر إليّ بشهوة كمراهقة أهينت كبرياؤها. خرجت. صفعني هواء بارد. استعدت أحساسي بعدمسي الذي أفلت مني في زحام الحانة. ها هو يعود إليّ أقوى مما حاولت أن أهرب منه. إنني في حاجة إلى نور أقوى.

LICHT! MEHR LICHT!

الحارس يشخر. قرب الفندق شجار بين سكيرين من أجل امرأة.

قالت صاحبة الفندق:

- الخصومات لا تنتهي في هذا الحي بين السكارى من أجل العاهرات العجائز.

فكرت فيها: وأنت، أليس لك أيضا وجه عاهرة قديمة؟ التفتت إلي وقالت:

- اسمع ياسنيور، لا بد أن أصرحك، إنه لم يكن في وسعي أن أفعل غير ما فعلته. المرأة التي أخذت غرفتك حامل. إنها وحيدة، ولا أظن أنك تريد لها أن تنام في الشارع.

- أبدا. لا أتمنى لها ذلك. لكنني حجزت غرفتي ودفعت لك ثمن أسبوع.

- أنا أفهم جيدا ما تقوله ياسنيور. لكن ينبغي لك أن تتفهم الظروف التي أرغمتني على كراء غرفتك لتلك السيدة. إنها ليلة واحدة فقط. لا أعتقد أنك ترضى لها أن تنام المسكينة في المطبخ. أنت رجل وهي امرأة حامل. السرير نظيف. أنا أضمن لك هذا. ستنام فيه هذه الليلة فقط. غدا ستنام في غرفتك أو في غرفة أخرى أفضل منها. إني أعدك.

إن لها وجهها متهدما ذكرني بوجه العجوز التي رسمها جويا Goya ناظرة إلى نفسها في مرآة تمسكها خادمتها. هزرت لها رأسي مستسلما. أشارت إلى حقيبتني داخل المطبخ وشكرتني ثم صعدت إلى غرفتها. هذه المرأة أيضا رائعة. تعرف كيف تتكلم بالاسبانية. ماهرة في جعل الناس يتفاهمون كما يحدث في فيستفال - بار. كل شيء رائع:

المرأة الحامل التي لا أعرفها، النوم في المطبخ، الحارس الشاخر وضوضاء
الخصومات التي لا تنتهي بسبب العاهرات المستهلكات حتى النخاع.
من لا يبارك هذا العالم؟

دخلت المطبخ. تأملت وجهي في مرآة فوق المغسلة. ينبغي لي أن
أنسجم مع جميع الظروف. إنني الآن في العالم وينبغي لي أن أتלוث
بخرائه. لقد قتل زمي الكبير زمي الصغير. إن الزمن قادر على أن
يلاشي الحقيقة ويحببها في أسطورة. خلعت ثيابي ووضعتها فوق
مقعد. غسلت وجهي. دقات على الباب. الحارس في سبات وشخير.
ذهبت وفتحت. فتاة شقراء. تطلعت إلى عربي وحيثي بحركة
مبهمة. فاحت منها رائحة خمر. دخلت المطبخ. دخلت وراءها
وراقبت حركاتها. راحت تنصرف كما لو أنني لم أكن موجودا أمامها.
فتحت حقيبتها وأخرجت فرشاة أسنان ومعجون. تنظف أسنانها وأنا
واقف أراقبها. مسحت فمها بغوطة مستعملة معلقة على مشجب
المغسلة. خلعت ثيابها أمامي ناظرة إلي كما لو كنت تمثالا. إما أن
تكون جد حمقاء أو جد عاقلة هذه المنيبة. وضعت ملابسها فوق
خزانة أدوات المطبخ. بقيت في قميص أبيض قصير وسليب سماوي
اللون. دخلت في الفراش وجذبت فوقها الملاءة إلى نصف جسدها.
سألتها بالإنجليزية:

- ستنامين هنا؟

- نعم.

- أنا أيضا سنام هنا.

- حسنا. يمكنك أن تنام.

- أين؟

نظرت إلي ولم تجبني. فكرت أن أضحك بعنون. سألتني باسمعة:

- عندك سيجارة.

- نعم.

أخرجت من جيب سترقي علبة كرافن وممددتها لها.

- أعطني حقيبي، من فضلك.

ممددتها لها. أخرجت منها علبة صغيرة. أفرغت نصف السيجارة
من التبغ ثم فتحت العلبة وبدأت تحشو السيجارة بالكيف. جلست
على المقعد الذي وضعت فوقه ثيابي. مدتها لي محشوة ثم أخذت تُعد
أخرى لنفسها. الروعة مستمرة. الشخير يملا حيزا من الصمت.
أشعلت لها ولنفسي.

- هل تنامين هنا كل ليلة؟

- نعم، منذ ثلاثة أيام.

- في هذا السرير بالذات.

- نعم، أنا وصديقة لي. محتمل أن تنام هذه الليلة مع بعض
الأصدقاء. إننا ننتظر إفراغ غرفة.

- لا أفهم.

لم تجبني. تدخن سيجارتها بلذة. أحسست مذاقا مرأ في فمي وأنا
أدخن سيجارتي. حلقي ناشف. نهضت وشربت من الصنبور. لم يبق
من سيجارتها سوى مصفاتها. رمتها على الأرض وتدلى نصفها الأعلى

– نور! مزيدا من النور!
ثم جحضت عيناه و غمره النور.
قال الدوس هكسلي:
– أقفل النافذة، انه أجمل.
ثم غمره الظلام.

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^

من على الفراش وسحقتها بفردة حذائها. فعلت نفس الشيء بعقبتي.
تأملتُ حجم حذائها. قدماها صغيرتان. قدما فتاة يابانية. لم أضاجع
بعد فتاة يابانية. هناك رجال لم يضاجعوا إلا امرأة واحدة: من الاستمناء
إلى زواج أبدي. هناك آخرون لم يضاجعوا إلا أنفسهم. يعلو الشخير
وينخفض، يقوى ويضعف. نغم يأتي من بعيد. النغم الحزين والجميل
يدنو من الفندق. تذكرت بوليو رافيل. تأملت ركبتي العاريتين.
موزار يعبرُ الدرب فأحلم. النغم يمر الآن قرب الفندق. قافلة بوليو
رافل تمر في ذهني. نظرت إليها. عيناها مغمضتان. ساكنة مثل
مومياء. نظرتُ إلى فردتها والبها. كنا أنا وأنيسة على الفراش نلهو
بعرينا سكرانين. أضع مربى الفراولة على جسدها وألحسه. أصب
الخمرة بين نهديها المضمومتين بيديها. أشرب ثم أتبع مسار الساقية.
تأملت حذاءها. كسرتُ كأسينا وجعلنا من فردة حذائها كأسنا
الواحدة. في ذلك اليوم الصيفي تمنيت لو أكل من طراوة لحمها
وأشرب النبيذ في جمجمتها.

قالت جرتروود شتاين لصديقتها أليس طوكلاس:

– ما هو السؤال؟ ما هو السؤال؟

قالت طوكلاس:

– لا أدري.

– إذا لم يكن هناك سؤال فلا جواب هناك.

ثم أغمضت عينيها إلى الأبد.

قال جوته:

- ٤ -

دخلت مقهى سنترال. سألت النادل:

- لماذا يقفلون اليوم؟

- لا أدري.

- هل كل المتاجر تُقفل؟

- هكذا سمعت.

- أحتي المطاعم؟

قال زبون:

- عصير يرتقال.

قلت للنادل:

- ألا يوجد مكان لي؟

- أنت ترى. كل المقاعد محجوزة الآن. انتظر حتى ينهض أحد.

رأيت أشخاصا يبحثون بنظراتهم عن أماكن مثلي. غمرني إحساس

بنفاد الأشياء. ربما تنفذ المشروبات والحلويات والفطائر من المقهى

ومن كل المدينة. أشار لي بيده شاب جالس على مقربة مني. دنوت منه:

قال:

- هل تريد أن تجلس؟

- نعم.

انحنيت عليه كي أسمع ما سيهمس لي به:

- أريد أن أنصرف من هنا، لكن أعذرني على ما سأقوله لك: لقد طلبت قهوة بالحليب على حساب صديق ذهب إلى مكان ما ولم يعد.

قلت دون تفكير فيما قاله.

- طيب. سأدفع ثمن قهوتك.

وقف. طلب سيجارة. أعطيته إياها وقلت للنادل:

- إن ثمن قهوته على حسابي.

ابتسم لي الشاب وانصرف. طلبت قهوة بالحليب ورغيفاً بالزبد والمربي. أكثر من مائتي شخص جالسين في المقهى. العابرون في الساحة. يدخل بعضهم المقهى. لا أحد يغادره من الجالسين. لكانهم مصابون بمرض الجلوس. يكفي أن أنهض ليتسابق الواقفون على مكاني. أصوات جنازية تُسمع من بعيد. الرؤوس تلتفت نحو مصدر الصوت. يتحركون في مقاعدهم ولا أحد ينهض. ظهرت مقدمة موكب الجنائز. يقفون تباعاً. أماميو الموكب يتشدون: سبحان الذي لا يموت! سبحان الذي لا يموت! سبحان! قدوس! رب الملائكة والروح!

بعض الشبان ظلوا جالسين. لم يخرج أحد. مرت الجنائز فعادوا إلى الجلوس دون أن يخرج أحد. من جديد عادت الحمسات والقهقهات والابتسامات. هذا من أجل أن يقفوا، أما أن يغادروا المقهى فلا بد من هزة أرضية ليفروا كالارانب.

النادل ينتقل بحركات عصبية بين المقاعد. جبينه عرقان، صوته سريع ومهتاج... يفعل لأي صوت، يكرر طلبات الرواد للمعاملين وراء المشرب. قال للمربي وراء الحاجز:

- أين الرغيف بالمربي الذي طلبت؟

العرق يسيل على وجه الصبي البدين. شفتاه غليظتان، متعبتان. قال الصبي بعصبية:

- ألا ترى؟ إنني أشتغل. أشتغل أكثر من اللازم. أشتغل أكثر منك.

نظرا إلى بعضهما بانزعاج. صاح النادل:

- كفى، أنا لم أقل بانك لا تشتغل ولا أنا قلت لك أشتغل أكثر منك.

دخل ثلاثة شبان مصحوبين بثلاث فتيات. تقدم أطولهم نحو النادل الواقف لدى الحاجز الخشبي:

- ألا يمكن لك أن تجد مكانا لنا؟

دخل اثنان آخران. قال النادل:

- المعذرة. أنتم ترون، لا أحد يريد أن يغادر.

قال الطويل:

- أوجد لنا مكانا كيفما كان.

- لا يمكن، لا يمكن. أنتم ترون بانفسكم.

تركهم وحمل صينيته المملوءة بالأكواب والأرغفة المدهونة بالزبدة والمربي وبدأ يوزع طلبات الرواد. إنني أدرك خيبتهم التي توترهم. تلح

معركة فترانية فاكل خصيتيه ومات. أيمكنها أيضا هذه الذبابة أن
تلقني بنفسها عمدا في الشراب إذا انهزمت؟ لقد رأيت ذبابتين
ملتصقتين، لكنني لم أرهما تتناطحان أو تتلاكمان. كارين أراها
تبحث عني خارج المقهى. بانث خلفها صديقتها إيفا. وأتاني.
أمس نمت مع كارين واليوم ربما سأنام مع إيفا أو معهما معا.
«عندما تنطفئ الشموع فكل الفروج تتشابه». لا أؤمن بهذا. إن
الفروج لا تتشابه. دخلتا باسنتين.

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^

عليّ حاجة البول. نهضت لادخل المرحاض. تصادمت مع رجل خارج
من المرحاض. نظر إليّ بعبوس. فكرت: مزاجه سيء. حين خرجت
وجدت شيخا جالسا في مكاني. قال لي النادل:
- أنت ترى. الشيخ جد متعب. يصاب بنوبة أعصاب إذا أغضبه
أحد. إن قلبه مريض.

قال الشيخ بصوت متهيج:
- أين قهوتي؟ ألم أطلب قهوة سوداء؟
قال النادل:
- أنت ترى بنفسك كيف هو عصبي.
قال الصبي للنادل:
- هاك الرغبة المشوي.

أوشكت أن أحتج، لكنني رأيت أكثر من أربعمئة عين، شبيهة
بعيون اليوم، حاضرة في المقهى والعيون الأخرى العابرة في الساحة. قال
لي النادل:
- تناول فطورك على الحاجر إذا شئت.

جلست على المقعد الطويل. أخذت أتناول فطوري. حطت ذبابة
على حاشية الصحن الصغير ثم حكّت خرطومها مع طرفيها الأماميين.
تقفز فوق المربي و تمص الزبد والمربي. تُرى ماذا كانت تمص قبل أن
تأتي إلى هنا؟ إنها لا تميز بين الزبد والقبح وبين المربي والدم الفاسد
المتخثر. لا تعاف أي شيء. أهى أيضا تمرض وتبرا من مرضها أم أنها
تعيش معافاة حتى تموت دون أن تشيخ؟ سمعت أن فارا انهزم في

أحلم. مُسالمٌ نفسي وسواي. في بيت فالري. رحلتي بدأت. ادراكُ
آخر يغزوني. وجه كارين هاديء كوجه امرأة مينة في قاع البحر. جميل
وجه امرأة في قاع البحر. وجهها محارة كبيرة بيضاء. شعرها شَجيرةٌ
نابتة في قاع البحر. نظري يخترق جلدِها. تتدفق الدماء في شرايين
وجهها. فكرت في السرخُس ناظرا إلى شرايينها. بصري يخترق كل
الوجوه: كارين، أيفا، تاتيانا، أجوستين، فالري، شتاين، والقطعة
سامي. أجوستين يقتل شعيرات رأسه وصدره وذراعيه ناتفا إياها
أحيانا قائلا لها: «لا أحد سينتفك إلا أنا يا صديقات جلدي.» تنامله
فالري بحب. تاتيانا تضحك و تضحك ووردة حمراء «مركوزة»
(مفروزة) في شعرها فقدت طراوتها مثل جلد وجهها. كارين هادئة
تبسم لي أو لنفسها. أيضا ناظرة إلى السقف نصف حاملة. شتاين
يلعب مع ظل أصابعه على ضوء الشموع التي تضيئنا، حركات شتاين
تتراقص على الحائط. ظله يكبر ويصغر. سامي جائمة عند قدمي أيفا.
هي أيضا أرحلناها معنا بالحشيش في طعامها: الأنغام أمواج تتكسر.
باب ديلن يغني للزوج. الألوان فراشات ترفرف في سماء أبريل. إنه
الشهر الذي يستمني فيه كل نرجسي على صورته في الغدير. قوة سالبة

تفقدني وزني وتوازني. أتحرك بوداعة. إنني مُسلم. أفقد جاذبيتي. زمان لا مكان. قال لي ايكاروس: اياك ان تغازل الشمس. أمسكت قمر كارين بين يدي. تمدّ لي فمها كثمرة أثقلت غصنها وغنت جون بايز بلغة آرية لا أفهمها. الفراشات تطير في عينيّ كارين وزانفير يهمل بقداسة للسلام. غسل فمها الحلو- المرّ يحلا فمي المرّ-الحلو. دغدغات تسري في دماغي. زغيباتها الشقراء تُرفّ في مسام جلدها. قبضت برفق على حشيش ابطيها وشممت رائحة عترة في يوم ماطر فهاجت رغبتي فيها. وردة حمراء لها عينان كبيرتان. أرى وجهي في عينيها نسرا. كلما نعست عيناها يسيل فمها في فمي. في عينيّ أو في عينيها ضباب يخرقه شعاع ضوء. قطرات تتساقط في داخلي كالطر الخفيف على الأوراق التي هجرها الخريف وفي السماء بقايا من نور ذلك المساء حيث أحب دائما أن أكون. الانكسارات الهشة أسمعها كالثلج المسحوق يُداس وأنا مثل فقاعة في الهواء أحسن والثلج بعضه أدوسه وبعض من أندافه ترشق وجهي. شعر كارين يتموج تحت أصابعي كومة من الطحلب الأملس في مياه دافئة، ساكنة. المسها كاني لا المسها. أقبلها كاني لا أقبلها. لا الحلو ولا المر. أتأملها ولا أتأملها: الأشياء صغيرها كبيرها. الانباض انغام. أنباضي وأنباض كارين أنباضنا. ظاهرا الأشياء يغوص في باطنها مثل وجوه فقدت براءتها. أنوار فيستفال - بار في ذهني بدون ضجيج. شرارات تصفع ولا تُحرق العينين. أي صوت سأسكته. أية حركة سأوقفها. كل الحركات تنشل إذا فكرت في إيقافها. سينهار هذا الجدار أمامي إذا شئت.

دخلت تانيا. عيناها وحشيتان. تحية من عينيها لنا. السلام في العالم. جويتر يُبارك العالم. أبناء الغالبيين يعانقون أبناء المغلوبين. أبوللون يكتب قصيدة السلم ويرون يغنيها وأمه تصفق له ومختاروها العائدون من الحرب ينتظرون نكاحها.

غنت تانيا:

- ماما، هل تأتين؟

ضحكت تانيا بعدوبة:

- أرسلني أبي إليك.

ضحكت تانيا بعدوبة ومرارة. تتعدد الأشياء دون نهاية. العيون الودیعة تلاطف وجه تانيا. نهض شتاين وركع عند قدمي تانيا ضارعا إليها:

- تانيا، حبيبتي تانيا، أرجوك، لاتعصريني.

تنظر إليه كاخذت في زمان نفرتيتي.

- لماذا تفكر هكذا؟ كيف تريدني أن أعصرك؟

يداه معدودتان إليها في ضراعة.

- أرجوك، أعبدك، أنت مولاتي. المحبة. المحبة يانانيا.

جلست تانيا. مدّ لها أجوستين سيجارة. أخذتها. بسمت له بالمحبة التي يطلبها شتاين. ضحكت أمها بنشوة. أشعلت تانيا سيجارتها. جفتها فراشتان ترفان من خلال شعلة الوقيدة. أهذاها لسينات زهرة سوداء. أجوستين وجهه ليس وجهه. يقتل شعيرات ذراعه وخصلات شعره المدلاة على جبهته وبسمته ذكرتني بالموناليزا.

شتاين يقوم ويركع أمام الكنبة العتيقة. يركع للكنبة أو لما يراه ولا أراه
أمام الكنبة، يقف ويخرج. أمسك وجه ايفابين يديه برخاوة ولطافة.
اليوم ايفا وأمس كارين وغدا هما أو غيرهما أو ربما لا شيء. استغرق
متاملا وجهها. إذا لم أسند رأسها فقد يسقط أمام أو خلف. كارين،
شتاين، تانيا، فالري وأجوستين تستمني أفواههم بالسجائر المحشوة
أحلاما خضراء. أنا أحلم بوجه ايفا. وجهها هو حلمي الوحيد الآن.
كارين تبتسم كحلْمينا. تانيا تصور الوجوه بعينيها الوحشيتين.

- ماما، هل تذهب؟ أبي وأختي ينتظراننا.

ضحكت أمها. ضحكت كارين. فالري تبتسم برخاوة. رأسها
صغير جميل مثل رأس حية صغيرة. أمسك أجوستين وجهها.
بيسمان. حلماهما في عيونهما. يتدائلي وجهاهما حالمين. يلتحمان.
يبتلع أجوستين فمها. فم ايفا بيسكوييت في فمي. تضحك تانيا.
أبلع فم ايفا. تضحك كارين. يدخل شتاين عاريا يقطر ماء. عانته
كثفية. شبعه متقلص يقطر ماء. قال:

- فالري، أريد فوطه.

فالري فمها مبتلع في فم أجوستين. نهضت تانيا وقالت لشتاين:
- تعال.

- تانيا، أرجوك ألا تعصريني.

- إنك تخافني كاتي معصرة وأنت ليمونة أو برتقالة.

- أرجوك، لا تعصريني.

- لا أنا عصارة ولا أنت ليمونة أو برتقالة.

مشى خلفها كطفل بال في ثيابه. يرتجف، يقطر. تانيا تضحك.
كارين تتأمل السقف. ظلالنا وظلال الأشياء تتراقص في السقف.
ظلالنا عملاقة ونحن أقزامها. تتراخي ايفا على صدري متأوهة بلذة.
أجوستين وفالري يذويان في نشوتهما. دخلت تانيا.

- ماما، هل تذهبين أم تبقيين؟

ضحكت تانيا. أسنانها الذهبية لمعت. فكرت في رمانة شطرت.
فالري تتسلق كتفي أجوستين. جلست تانيا. دخل شتاين لابسا. ركع
أمام تانيا.

- أعبدك، أرجوك ألا تعصري قلبي المسكين.

- ماما، ألا تنهضين؟

ضحكت أمها. أجوستين وفالري يعصران بعضهما. يذويان
في نشوتهما.

- لا تعصريني يا تانيا.

- شتاين، قلت لك أنا لست عصارة.

نهضت تانيا. ركع شتاين أمامها. ضحكت له تانيا. تعثرت.
تلقفتها تانيا. خرجنا أختين حميمتين. ضحكات تانيا تبتعد.
زحف شتاين نحو ايفا. نهضت كارين. خرجت. زحفت فالري إلي.
أجوستين يفتل شعيراته. شتاين راكع بخشوع عند قدمي ايفا.
اللطيف وجه فالري. تتلوى مثل حية صغيرة جميلة. تلين لي كما تلين
الحية للحاوي. وجهها أملس مزوق كنمكة سلمون. أجوستين يتأمل
سماء الحجرة الغائمة بالدخان. ايفا تلامس شعر شتاين كأنه طفلها.

تفتح له ذراعيها. يسقط رأسه على صدرها كطفل محموم. تضمه إليها. تحنو عليه. عادت كارين عارية. تطاولت فالري إلى وجهي. نامت كارين على صدر أجوستين. يداه تنتزهاً فوق عريها. وضع شتاين رأسه على حجر ايفا. عانقت كارين أجوستين بحب حميم متأوهة. ينهض شتاين ويخرج. يتعري أجوستين. ايفا تتأوه وحدها. يغوص عري أجوستين في عري كارين. تتعري ايفا، تتعري، تتعري فالري. تتعري. نصفني لايفا ونصفني لفالري. يتلوى عري فوق عري في عري يمتص عري عريين يمتص عريان عرياً يدخل شتاين عارياً تشابك الشعابيين يتمزق عنكبوت الجحور القديم الشعابيين تسعى من جحر إلى جحر تحتويها الجحور.

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^

- ٦ -

كارين منزوعة بسبب ما حدث لشتاين. قال أجوستين:
- سيضعونه خارج حدود المغرب. هذا هو العقاب.
- لم يؤذ أحداً. أليس كذلك؟
- أعرف أنه لا يؤذي ذبابة على أشفار عينييه. أخذ يركع أمام بعض النساء، ويطلب منهن ألا يعصرنه. هذا ما قاله لي شاب مغربي حاول أن يعيده إلى المنزل فلم يستطع.
- وبسبب هذا سيخرجونه من المغرب.
- أعتقد أنهم سيدينونه بتهمة التعري الاباحي في الشارع.
- لكنه كان فاقداً وعيه.
سالت ايفا:
- أين يمكن أن يكون الآن محبوساً؟
قالت فالري:
- أعتقد أنهم سيسرحونه بعد أن يحذروه من تعاطي المخدرات.
قال أجوستين:
- سيكون محظوظاً إذا لم يطردوه من المغرب.
مقهى سنترال والمقاهي الأخرى في السوق الداخلي ليست مزدحمة

كامس. في سطيحة المقهى بعض الميبيين يسترخون في كسل وحلم. ابتسمت لكارين. بسمت لي. استعجل ولا استعجل آخر الشهر كارها عودتي إلى عملي. ربما لن أعود. العمل صار عندي لعة. كارين، فالري، أجوستين وشتاين لا يقلقون مثلي على المال. إنهم يستلمون المال بين فترة وأخرى من عائلاتهم. تاتيانا لها ثروة تكفيها للعيش حتى الموت. فالري تتجشا. قال أجوستين:
- سندهب إلى المنزل.

حركات فالري لا إرادية. تقول كلمة عوض أخرى. دخلت تاتيانا ضاحكة. أجوستين وفالري ينصرفان. لا أعرف بعد أهى هامة أم لا هذه الأحداث التي أعيشتها في هذه المدينة. مع ذلك فتفاهة الحياة عندي أفضل من تفاهة الموت. هناك موت أعمق، لكن للبطولة ظروفها.

استطيع ألا أكون هنا، لكنني أبقي مشدودا إلى الأشياء أو إلى الناس أينما شئت أن أذهب. وحده الخيال يمكن أن ينقذني. يمكن لي، مثلا، أن أتخيل شكل طاولة أخرى إذا لم يعجبني شكل هذه أمامي. كذلك هذه المرأة أمامي قارئة صحيفتها. إنها الآن تقرا وتدخن، قرطاهها حلققان كبيرتان، نظارتها غامقة، سلسلتها البدوية ذهبية، لابسة سروالا أبيض، هذه الأشياء وأخرى تروقها هي وليس لي. في إمكاني أن أجردها منها في خيالي وألبسها غيرها. يمكن لي أيضا أن أتخيلها أكثر شبابا أو شيخوخة. إنها هي وليست هي بالنسبة لي. الأشياء أذن موجودة وغير موجودة. كذلك هو انزعاجي الآن. كثيرا ما

تراودني فكرة الاعتداء على نفسي وعلى غيري، على عضو من جسمي بالذات. يحدث لي هذا أحيانا حتى في أحسن حالات انسجامي مع نفسي وسواي. أن أفقأ عيني هذا، أن أضرب ذاك، لكن سرعان ما ألوم نفسي. وشيئا فشيئا تهدأ خواطري العدوانية عندما أفكر فيها رادعا إياها. هكذا أدرك أن للفرح والحزن علاقة قوية بالجريمة.

قدمني إليه أجوستين:

- علي.

مددت يدي:

- مرحبا.

مدّ يده بخفة وقال:

- روبيرتو موراليس، مرحبا.

حركاته سريعة، يتكلم بعصبية، لكن شخصيته جذابة. أهو إحساسي السريع بالأشياء والأشخاص سببه ضالة جسمي وقامتني المتوسطة؟ أحيانا أتكلم بسرعة وصوت مرتفع. هذا لا يحدث لي إلا مع ذوي القامات الطويلة مثل (أجوستين) أو المتوسطة البدينة. الأمر يختلف مع ذوي القامات القصيرة المعتدلة مثل روبيرتو موراليس أو المتوسطة النحيلة. حين أظل أياما طويلة لا أتكلم خلالها إلا قليلا يحدث لي أن أستجيب للكلام بانفعال سريع جدا في مناقشة طويلة. إن داخلي يكون قد فقد التوازن مع التأثيرات الخارجية. هذا الاضطراب الذهني ينعكس أيضا على حركاتي، إنني لا أستجيب جيدا لانعكاسات الأشياء والناس حين أريد أن أعبر من رصيف إلى آخر، أو

أجدني فجأة أحيي شخصا لا أعرفه أو أمدّ يدي للمصافحة في لحظة وحركة غير مناسبتين.

أخرج روبيرتو علبة صغيرة فضية. أفرغ على ظهر يده قليلا من مسحوق أبيض: - إنها الكوكايين. استنشقت المسحوق بعمق ثم سال أجوستين بنكي باشا:

- هل كتبت شيئا هذه الأيام؟

تطلع بنكي باشا نحو السقف وقال:

- قصيدة بلاستيكية، طويلة، مليئة ببخور الشرق. فيها وُلدانٌ وحوريات وموسيقى «الراجا».

ضحكت تاتيانا. روبيرتو يتمشى بتوتر في القاعة من ركن إلى آخر. يتوقف في الوسط ثم يخطو ويعيد. لا كلمات. كارين، أيقا وفالري مسترخيات مثل قطط فارسيات. تاتيانا تظل أكثرنا يقظة وحيوية. ثانية سارحل. سأتجاوز من جديد هذا الحاضر عبر الحدود الزمانية. سأكون هنا ولن. في هذا الزمن والفراغ وغيرهما ربما. الانفصال يتولد لحظة تلو أخرى أكثر فأكثر. قال روبيرتو:

- أمس، فكرت في أصدقائي الذين ماتوا، وفي الذين تربطني بهم صداقة منسية أو تكاد. أيضا لم أنس من تمنيت أن أقتلهم أو يقتلوني ولو في الخيال. القتل قلما يأتي في الأوان...

ضحكت تاتيانا. إنها لا تنتظر من يتضاحك معها. الضحك: إنه عدو المثاليين. نصفها الأعلى يغريني فرحاً وأسفلها تُفاحةً مشتتة لا تملك ثمنها. ساقاها تذكراني بالجميلة التي دغدغت زغبياتها

لساني. تركتني نائما وسرقت محتوى مطبخي. شبابها الأسفل يمتنع أن يشيخ سيّماً. لا أذكر منهم إلا سيقانهم حين يشرسن. وفي منتهى السكر لا أذكر سوى نضال نبضينا.

رفع روبيرتو كتابا من فوق الطاولة. تصفح بعضه. وضعه. قال: - التفكير في الماضي، أحيانا، هو خوف من مستقبل مُريب. الانسانية، الحياة، المصير، إن الإنسان لا يبتهج عندما يغزوه بعمق معنى هذه الكلمات.

ضحكت تاتيانا. تشاءيت كارين. ربما فرجها أيضا يتشاءب. بنكي باشا هادىء مثل ماء آسن. فالري تحلم كعاهرة تنتظر زبونا رسميا يدفع ثمن ديونها الصغيرة. أنا ألج في رؤى هذه الليلة اللا زمنية. إني أرى امرأة نصفها الأعلى حية نفقا بيضة أنا ساكنها أمدّ لها فمي طالبا لسانها لساني أعطيها بصير لي نصفها الأعلى متعانقين نتباكى أصلنا غير آسفين على الدفء الذي أنضجنا.

قررت اليوم ألا أرى رؤى. روبرتو يروني أكثر من الرفاق الآخرين.
توقفنا في بولفار باستور. يستعرض مرورهن: «هذه هكذا وصفها لي
طبيبي». «لو كان في إمكاني لأحببتك إلى الأبد». «تنتظري عشر
سنوات لكي تكوني لي».

ينظرون إليه و يضحكن أو يعيسن.

ها أنا في طنجة. زرتها مع أبوي طفلا. في الصباح نذهب إلى
الشاطيء. كانت هناك دائما حفلة الشمس والبحر. في المساء نصعد
إلى القصبة لنشرب الشاي الأخضر و نظرب لنغمات العود في مقهى
شعبي.

مرت فتاة رشيقة فاستيقظت فيه حماقة الرجال. في مشيتها ايقاع
القيثارة، وفي رديها رقص الفلامنكو.

قال لها روبرتو:

- ومع ذلك يزعم بعضهم أن الأسبانية لا تعرف كيف تمشي.

تبسمت معه. رقص رديها وهاجا. صورها روبرتو بعينه من
جميع الجهات. الأسبانية تمر بوقار وحماقة إذا النظر هيجهها. الأشياء،
الناس، الفضاء، الليل، وكل الفروج تستعد للدلك الليلي. سألته:

- كيف عرفتھا اسبانية؟

نظر إليّ ببسمة عينية الصغيرتين، المتعبتين:

- إن موسيقى اشبيلة ورقصھا لا يخفيان عليّ.

مرت أخرى جميلة، مدّ لها وجهه الجميل:

- أنت أجمل من أراها حتى الآن.

لم تعبأ به. التفت إليّ:

- أتعرف يا عليّ؟

- ماذا؟

- إني ألعن الانسان الأول الذي أعطاني أول كتاب شعر.

- لماذا؟

- ليس هو الشعر الذي ينبغي أن يوجد. إذا كان حقيقة يوجد الاله

طيب فينبغي له أن يعطيني فردوسه دون شرط. المحجيم أعيشه هنا.

- فكرت: إنه عذمي.

- روبرتو.

- نعم.

- إنك تحلم.

- العالم من صنع أعظم الحالمين. إذا مات إنسان وفي رأسه أحلام

جميلة فإن موته سعيد.

قاطعته:

- أنا أكره من يجعل من لحظاته الاخيرة تمثيلية حزينة. إن أغلب

المحتضرين يفتشون عن أجمل التعابير الكثيبة ليختموا بها آخر

مشهد من تمثيليتهم. الانسان، مهما يكن قد عاش سعيداً، لا يموت

وفي رأسه أحلام جميلة. إن معظم المحتضرين الممثلين كذابون.

قهقه. لم يكن يبالي بالتفانيات العابرين. كنا نمثل مثلهم. تذكرتُ

جماجم بودلير تسير في أحياء باريس، وادجار الآن بو يرقص نشوان في

المقابر.

- تعلم يا عليّ كيف تحب أحلامك. الحلم كالنار يطهر. نيرون كان

مجنونا عظيماً. إنه أعظم حالم. النار هي التي ظهرت روماء الموبوءة

وأعادت بناءها. الانسان في حاجة دائماً إلى نار أو زلزال.

وصلنا إلى نهاية الشارع. يتوقف. يُشير إلى الأشياء والناس. يلتفت

إليّ ضاحكاً. يتكلم عن الأشياء كأنه صانعها، وعن الناس كأنه

معلمهم.

في غرفته. يدخن سيجارة محشوة بالكيف. يتمشى. يداعب

سكينه الجميلة. حركاته تخيفني الآن. قد تسيطر عليه وسوس قُتلي.

التفت إليّ بحركة تمثيلية سريعة والسكين لامعة في يده.

- حادث. وجودي حادث. هل تكون للانسان فكرة عن الحادث؟

لا أنا فكرت في وجودي ولا أحد فكر من قبلي على أية صورة ساكونها.

(أخرج رزمة صور).

ماضي هنا. (أشار إلى الرزمة). هذا هو منزلي هناك. (أراني

الصورة). كلبي وبندقيتي. أحياناً لكي أصطاد الحيوان وأحياناً لكي

أصطاد الانسان. هذه فتاتي. ستة عشر أبريلات. كنت أجلسها على

ركبتي وأعلمها أ. ب. ت. الحب. (صورة أخرى) هذا جسر سان

فرانسييسكو. (صورة أخرى). هذه ثلوج آلا كسا. انظر إلى هذين الطفلين الاسكيمويين (صورة). وهذه صورة الباحثين عن الذهب في الكولورادو. (صورة) هذه لوحة الرسام الكولوي المجنون بدرو. انظر، انظر، لقد حشر في هذه اللوحة جميع أصدقائه الذين فقد صداقتهم. حتى الذين يكرههم ولم يتكلم معهم قط. (اللوحة تمثل شواهد قبور مرسومة عليها وجوه وأسماء أصحابها وامرأة جميلة طافية خارج القبر مثل أوفيليا الغريقة). لقد ضاجعناها له. كان يحبها عفيفة مثل بياتريس دانتى وأوفيليا هملت. أما أنا فقد عاملتها كإحدى المنظرات على رصيف بيكاديللي أوسان دوني أو الباريو تشينو. إن ذلك ما كانت تريده منه أو مني. مسكين بدرو! لم يكن يؤمن أن أية امرأة في العالم لا بد وأن يكون فيها قليل أو كثير من القحب. كان أبي يقول لي: الشقاء يُعَلِّمُ كل شيء عن الناس والأشياء قبل الأوان. أمي كانت تقول لي: إن لم تتزوج باكرا فستشقى. اليوم لم ينفعني شيء مما كانا يقولانه لي. ماكانا يعرفانه عن الناس والأشياء لم يعد إلا في الذكرى. ماتا هما، ومات الناس، والأشياء من زمانهما صدمت.

تأمل ما كتبه وسط الصورة: «جحيم بدرو». هاهها... إنها مزيج من أفكار اقتبسها عن مهزلة دانتى ومآسي شكسبير ورعب بو. (إن موت امرأة جميلة هو أكثر المواضيع شاعرية). هذا ما يريد قوله من خلال بو.

ضحك. مسح وجهه براحته. انفعل. باس الصورة بصوت مسموع قبل أن يمدّها لي:

- ليننا. حبيبتي ليننا. ليناي. سبعة عشر أبريلات لم تبلغها بعد. سأجعل منها امرأة المستقبل. سأقتل فيها ما تبقى من البدائية. يا إلهي! هاهو ذا الحظ الوحيد المتبقي لي من ماضي المراد منك بكل الحاج. لا ملائكتك، لا شياطينك. لا تُفرحني. لا تُحزني. إلهي! لك كل النهاية مفروشة بالأور كيديا يالينا.

ابتسم. أحب طموحه المجنون. تخيلته يُجَنُّ. آ... آ... آ...! هكذا تخيلتني أصرخ طاعنا إياي في قلبي ثم يستل سكينه ضاحكا ويتأملها لاحسا إياها. الدم يسبح على الأرض: خريطة دموية لعالم غير موجود. دمي يسيل وروبيرتو يضحك بهستيرية وأنا أضحك مثله بقوة. دمي يتدفق مثل شلال من فمي كلما أعداني ضحكه.

يدور. يتوقف. يرفع رأسه إلى السماء. يغمض عينيه. يقطب ملامح وجهه الجميل. فكرت: كيف لمن يحمل مثل هذا الوجه الوسيم أن يفكر في جريمة؟ تنهد:

- علي. كفى. (رمي رزمة الصور فوق الفراش. تبعثرت الصور وجوها وأنصافها وسيفانا ومثلها وأقلها وما ليس بوجه أوساق أو غيرهما). هذه ليست إلا صوراً. إن عيشي الآن أقوى من الصور. سنخرج لنفكر في الانسانية متباطئة أو مسرعة في الشوارع. إنها أكثر حياة مهما تكن غبية. لم تُصِرْ بعد صوراً. مازال عندي صور أخرى، لكنها ليست سوى صور لافخاذ لوئها بالزوجة مرقّ الليالي الأبيض. عدنا إلى السوق الداخلي. مقهى فوينتيس. اقترّب منا شيخ

متسول. مدّ يده لروبيرتو:

— أعطني شيئا.

— أعطه قطعة إذا كانت عندك.

أعطيته خمسين فرنكا. أدناها المتسول من عينيه. قال رجل جالس

إلى جانبنا لزميله:

— في الليل قلما يقترب منك، في هذا السوق الداخلي، متسول

سوي العقل. المتسول في الليل إما أحمق أو سكران.

قال روبرتو:

— إنه سيسقط هذا الإنسان.

أضاف بعد لحظة:

— عندما كنت في الهند بصقت في خيالي على شحاذين مقروحين

كانوا يمدون لي أيديهم بالحاح وذل وعلى مقربة منهم بقرة تتجول بكل

حرية ملتزمة في طريقها الخضرو الفواكه التي لا تستطيع أن تمتد إليها

يد إنسان يموت جوعا. هناك حكاية تقول: كان غاندي يتمشى مع

انجليزي في أحياء الهند. تفلت بقرة روثها، غمس غاندي أصبعه في

الروث ثم وشم به جبينه. قال له الانجليزي:

— إن هذا ليس معقولا.

قال غاندي:

— إن هذا فوق المعقول.

تعاليت قهقهات من جميع المقاهي. الشيخ السكران يرقص في

وسط الساحة على ايقاع نغم في التلغزة.

— إنه يشع هذا الضعف الانساني.

سقط الشيخ بين مقاعد مقهى فونتيس. كفت القهقهات. لم

يقترب منه أحد لاسعافه. يتحرك. يبذل مجهودا ليجلس. رأسه مائل

إلى أمام. يدها متدليتان على الأرض. وقف بصعوبة. سقط من جديد

على قفاه. قال روبرتو:

— لنذهب من هنا.

فكرت: التجربة. من المهم اكتشافها، لكن أن أعيشها هو الأهم.

لا يهمني شرها أو خيرها. هل هي الحرية وحدها الكاشفة عن قناع

الوجود؟ لم أضح بعد بتجربتي من أجل حرية الآخرين. أدور. أدور

وأدور. حول ماذا؟ إلى أين؟ من أجل من؟ لقد ابتعدت عن أشخاص

كنت أبتسم لهم في وداعة زائفة. كنت أدور في حلقتهم سبع ساعات

في اليوم. خمسة أيام في الأسبوع. تسع سنوات ونحن نشم روائحنا

مثل الكلاب: الأعراس، الحفلات العامة، الزيارات العائلية، السهرات

الليالية، ألعاب المقاهي، الخصومات والمصالحات والأحزان الغرامية.

(كتبت لها سبعا وسبعين رسالة في أقل من شهر). هكذا قال لي

أحدهم. أنا اليوم أنمو أيضا في أفبون آخر، لكنه أفبون تخلو فيه

العلاقات الزائفة. ما يريحني اليوم هو أنني خلفت حياة لست آسفا

عليها. إنني أولد من جديد مثل شجرة في غابة موحشة. حقيقة أخرى

عن هذا العالم تولد معي في هذه الولادة الجديدة. زمني في اللازمان. بلا

سماء ولا أرض. احسني بينهما دون أن أتماس مع أحدهما. زمني في

زمن اللازمان.

مرة أخرى ها أنا في مقهى سنترال. أدور وأدور. أجدني هنا أو في مكان يشبهه. النادل واقف ينظر نحو الباب. زبون يقرأ صحيفته. يتناول كأسه ويرشف منها وعيناه تتحركان من اليمين إلى اليسار. يزم شفتيه ثم يرخيهما. غارق في أحداث العالم. ينتقل إلى الصفحة الثانية ثم يعود إلى الأولى. شخص آخر يلتهم فطوره بلهفة. ثيابه ملطخة بالطلاء. يسعل. السابعة وسبع دقائق. يقولون بأن رقم ٧ هو أهم الأرقام في العالم. الله خلق العالم في سبعة أيام. أيام الأسبوع سبعة. عجائب الدنيا سبع. السموات سبع. درجات الجحيم سبع، ألوان الطيف سبعة. درجات السلم الموسيقي سبع، رؤيا يوسف عن القحط سبعة أعوام. أرواح القط سبع. الفنون السبعة. العالم سبعة أو سبع أو سبعة وسبع معا. هائل هذا الركाम من السبعلاوات.

وضع لي النادل القهوة:

- هل تريدها هكذا؟

تأملت كأسي المنصفة وقلت له:

- أتركها كما هي.

صبّ الحليب فانبثق لون بُني غامق ثم تَقَشَّدَ اللون وأرغى السطح.

تطلعت إلى الساحة. ينكي باشا أت.

دخل متوترا. جلس. يدخن سيجارته بشراهة. تأمل الكأس. قال

لِلنادل:

- ماء من فضلك.

سألته:

- ألا تريد قهوة.

- أنا عطشان.

وضع النادل كوب الماء. شرب بلهفة. تأمله النادل بدهشة. قال لي:

- لقد زاد جنونه هذه المرة. جنونه يزداد كل سنة. من الأفضل أن

يبقى في بلاده قرب عائلته.

سألني أجوستين:

- ماذا يقول؟

ابتعد النادل مبتسما.

- يبدو عليك أنك لم تنم، هذا ما قاله.

- إنه دائما يسألني عن أشياء لا تهتم: «من أي بلد جئت هذه

المرة؟ يبدو عليك التعب أكثر من المرة السابقة التي كنت فيها هنا. من

أين جاءت هذه الفتاة التي معك؟ إنها لطيفة. اعتن بنفسك

جيذا. لقد ألقوا القبض أمس على بعض المبييض. من حسن الحظ أنك لم

تكن هنا. هل معك عملة أجنبية للصرف؟ صرّفها قبل أن ينخفض

سوقها. أفأ كم أكره هذا النادل وأمثاله!

اشعل سيجارة أخرى بارتجاف.

عليّ

- نعم.

- هل هو معقول ماتراه؟

- لا أدري ماذا تقصد.

- لا أعني شيئا بالذات.

السيجارة ترتجف في شفتيه. ينفث الدخان من منخريه بقوة.

عيناه تدمعان. يغير وضع ساقيه باستمرار. سألته:

- ماذا تناولت اليوم؟

- ماكسينون.

- والرفاق؟

- في القصر.

- في القصر؟

- ألا تعرف قصري؟ أليس لي قصر؟ إنني ينكي باشا. لا بُدَّ أن يكون

لينكي باشا قصر.

- صحيح. إنه قصر. نائمون؟

- لا أدري. وأنت، أين قضيت ليلتك؟

- سهرت مع روبيرتو.

- ماذا تعاطيتما؟

- شربنا الويسكي ودخنا الكيف فقط.

- عليّ.

- نعم.

- أتعرف؟

- ماذا؟

- ماذا أقول؟ ماذا كنت أريد أن أقول؟ (وضع يده على جبهته ثم أخذ يقتل خصلات شعره). آه! تذكرت. سأتلفن لأمي هذا اليوم. سأطلب منها أن ترسل لي مبلغا آخر من المال. إذا لم تفعل فسأضغ أوراق الكيف وأكل الخبز مغموسا في الماء أو في بولي. فالري أيضا تنتظر من يوم لآخر حوالتها من أمها. قل لي، وأنت؟

- أنتظر آخر الشهر لأقبض آخر حوالة. بعد ذلك سأعيش على ما يأتي به تسكعي.

- لماذا؟

- لأنني لن أعود إلى العمل. لقد صار العمل لعنة بالنسبة لي.

- تفاهة.

- ماذا؟

- من يقبض ومن لا يقبض راتبه في التفاهة. سأتلفن لأمي هذا المساء.

- كم ستكلفك المكالمات إلى شيكاغو؟

- سأحيلها على حسابها. لا تقلق علي. أبي مات وأمي تملك أسنهما

في بنك. أمي من أغنى النساء في شيكاغو.

فكرت: أمي من أفقر النساء في القنيطرة.

امرأة سكرانة تحاول أن تشعل سيجارة. تتنرجح فتتنطفئ الوقيدة ثم

تشعل أخرى. بنكي باشا يدخن بشراهة. يحبس الدخان في رئتيه.

يقتل شعيرات رأسه. أجرام الكنيسة تدق. قال أجوستين:

- صوت المسيح.

قلت:

- بل صوت بولس الذي ينادي.

- عندك الحق. إن صوت الكنيسة هو صوت بولس. بطرس ينكر

المسيح للمرة الثالثة والديك يصبح للمرة الأولى. كم أود لو أنني ولدتُ

في زمن الدعارة المقدسة. بابل، مصر، الجليل، روما. (لحظة صمت)

في الاغريق كان هناك يوم خاص للحب المباح. كانت المرأة تنتعل في

اليوم المقدس مشاءة مكتوب في أخمصها: «اتبعني» زمن كيلوباترة

كان آخر هذه الأزمنة المقدسة.

رجل عار يغبر الساحة ببطء واطمئنان. يلوح بعصاه الجميلة في

رشاقة. لا يلتفت إلى أحد. أسمر، نحيل، متوسط القامة. تهامس رواد

المقهى:

- محشش.

- مجنون.

- من يدري!

- غرابة!

نشطت حركة في المقاهي. ذهب بعضهم إلى بعض متسائلين. لم

يتبع أحد الرجل العاري. ضحككت في خيالي. سألني أجوستين.

- ماذا يحدث؟

- ألم تر ما حدث؟

- كلا، ماذا حدث؟

- الرجل العاري، ألم تره؟

- نعم، رأيته.

- ذلك ما حدث. كان يحمل فقط عصا.

- هل ضرب بها أحدا؟

- كلا، كان يلوح بها في الهواء.

- الهواء لا يحس بشيء. ربما كان يهش بها على قطع من الغنم أو

البشر في خياله.

نهض أجوستين.

- سارجع.

تساءلت: حتى الآن تخلصت فقط مما هو عادي. أستطيع اليوم أن أرفض وأقبل العلاقات بلا وداعة زائفة، لكنني، حتى الآن، لا أعرف ما أريده. ما يحدث لي هنا، كل يوم، شبيه بحادث مرور الرجل العريان الذي أوقف مضغ الفطور في الأفواه للحظة. من كان ينتظر مروره؟ هكذا هو ما حدث لي في هذه المدينة. أجوستين أقل دهشة مني نحو الأشياء. ربما كان يفكر في شيء آخر سلبه وعي الرؤية الكاملة. إنه مجرد شبح مر بالنسبة إليه. كان يرى ولا يعي ما يرى. رؤياه كانت في تلك اللحظة أقوى من رؤيته. هل سأكون أفضل مما كنت أو أنني أندفع فقط نحو ما لم أكنه أمس وربما نحو الأسود؟ هاهو يعود. قال للنادل:

- كوب ماء آخر، من فضلك.

- سلما. SELMA

التفت إليه:

- من هي؟

- لم أحدثك عنها بعد. إنها زوجتي السويدية السابقة. طلقتهما منذ

سنوات.

- أين هي الآن؟

- في الجحيم أو في الفردوس. لا يهم أين تكون. ليست هنا، هذا

هو المحزن. محتمل أنها مع رجل آخر. لا يهم. إنها تحب الأسفار إلى

الشرق الأقصى.

- أما زلت تحبها؟

وضع النادل كوب الماء على الطاولة وقال:

- هل صديقك مريض؟

ابتسمت له ولم أجب. لم يسألني أجوستين هذه المرة عما قاله النادل.

- كانت تفهمني أفضل مما كنت أفهمها أو أفهم نفسي.

فكرت: أنا نسيتهن كلهن. كرهت الحب الذي يأتي بالقوة أو

الضعف. الحب لعبة خاسرة. لم تعد تسليني. كل أصدقائي الذين

أحبوا وتزوجوا عاشوا في النحس. لقد رأيتهم يبتكون مثل أطفالهم في

الحانات بعد أن طلقوا. إنهم يتقياون المرار في الصباح.

ظهر شرطيان. نهض رجل من قهوة طنجيس. تكلم معهما وأشار

بيده اليمنى إلى زقاق «فلايين الحوت».

هز الرجل رأسيهما. نعم، لم أعد أذكر حتى ملامحهن. أجوستين

معه الحق. إن الغياب موت.

- علي.

- نعم.

- أتعرف!

- ماذا؟

- عندي ابنة عمّة غنية.

- وبعد.

- عندما أعود إلى شيكاغو سأتزوّجها.

- وبعد.

- سنقضي شهر العسل في معسكر الهيبيز.

- أنت محظوظ.

- فكرت: أقارب أسرتي من بين أفقر العالم.

- بعد ذلك سأهجرها إذا هي رفضت.

- سترفض ماذا؟

- إذا هي رفضت أن تصير هيبية.

- أنت محظوظ.

- ينبغي للأغنياء أن يصيروا هيبيين إذا أرادوا أن يكونوا إنسانيين.

- ظهر الشرطيّان من جديد في الساحة. تركّزت نظراتهما على

المقهى. تكلمتا مع بعضهما. تقدم أحدهما نحو المقهى ودخل وبقي الآخر عند الباب ويداه وراءه.

- أوراقلك.

- أنا؟

- نعم أنت. مع من تحسّيني أنكلم؟

التفت إلى أجوستين كأن السؤال لا يعنيه. تأملته كأنني أستغرب مثله هذا الطلب. اقترب الثاني مني.

- أوراقلك.

- الأول لأجوستين:

- ألا تسمع ما أقوله لك؟

- مددت هويتي للثاني. قال أجوستين:

- ليست معي.

- لا أوراقل عندك إذن.

- عندي، لكنها في قصري.

- قصرك!

- نعم، إنني أسكن في قصر.

- صرخ أحدهم في مقهى طنجيس:

- ها هو يمرُّ. ها هو العريان.

نهض الرواد من جميع المقاهي. ضحكت في خيالي. حين لا يعثرون على العراة يقصدون اللابسين. إذا قُشِلوا مع الهاربين يُزعجون الجالسين.

- خلّت الساحة. نهض أجوستين.

- سأعود.

ظهرت المرأة السكرانة في الساحة. توقفت لحظة. تتجه نحو المقهى. أوقفها النادل عند العتبة.

- الدخول ممنوع.

- لماذا؟

- من الأحسن أن تذهبي لتنامي.

- لا أريد أن أنام الآن.

- اذهبي اذن إلى مكان آخر.

- وهنا؟

- ممنوع.

دخل أجوستين. انصرفت المرأة باصقة نحو المقهى. تتمايل.
تتوقف. تلثفت إلى النادل وتبصق على الأرض. شتمته. بصقت على
الأرض وداستها غاضبة.

- ثقو على مقهاكم.

تذكرت مزاجهم الغريب: «تعال - اذهب - لكن...»

- أجوستين.

- نعم.

- لتذهب من هنا.

- لماذا؟

- سيعودان. وقد يأتي معهما آخرون.

- لقد تذكرت أنني أحمل معي جوازي. هاهو ذا.

- سيالاننا عن أشياء أخرى لا تهمهما.

- بل هم يهتم كل ما يفعله الآخرون. إن لديهم دائما أسئلة

كثيرة باطلة. إن شغلهم هو أن يحرسوا حرية الآخرين.

- إلى القصر اذن.

- إلى أي مكان ماعدا البقاء هنا.

- ٩٠ -

قال بخشونة:

- تعال معي.

تطلعت إليه. شخص آخر يتبعنا.

- تعال من هنا.

- انعطفنا في زقاق «وحيد».

- قف هنا. ارفع يديك. (يتحسني من أعلى إلى أسفل) أين

صديقك؟

- من؟

وصل الشخص الثاني.

- المهيب الذي كان معك في الصباح في المقهى.

- لا أدري أين هو الآن.

الثاني:

- كيف لا تدري؟

- لا أدري أين ذهب.

- لكنك تعرف أين يسكن.

- نعم.

— ماذا عنده في منزله؟

— أصدقاؤه المهيبيون.

— الأول:

— ماهي الأشياء الأخرى غير الأصدقاء؟

— عنده أسطوانات موسيقى البوب، حاك، كتب شعر، مضاجع

مغربية، شموع، قيثارة وناي.

انتهى الأول من تفتيشي. تأملاني للحظة. قال الثاني:

— ليس هذا ما نريده.

— لا أعرف سوى ما قلت.

— وأنت، ألا تتناول المخدرات معهم؟

— كلا.

— معك أوراقك؟

— نعم. (أعطيته جواز سفري. فحصه ثم قال:)

— معلم اذن.

— نعم.

— معلم يعاشر المهيبيين. (صممت) ماذا تعمل هنا في طنجة؟

— في عطلة.

— معلم في عطلة يتناول المخدرات. (صمت).

قال الأول:

— ماذا تفكر؟ ألسنت مسرورا؟ (صمت).

تأملاني للحظة. انصرفا. ظللتُ مبهورا. انفتحا إلى قبل أن ينعطفا

ويختفيا. ضحككت ضحكة كبيرة في خيالي. فكرت: إن قليلا من

الجنون والصمت يكفيان للتخلص منهم.

قالت تانيا:

— علي، ماذا تفعل هنا؟ أتحلم أم ماذا؟ انك تبدو نالما وأنت

واقف.

أفقت من ذهولي.

— آ، تانيا، أنت هي.

ابتسمنا.

— تعال معي إلى منزلنا.

— كنت ذاهبا عندكم.

تبعتهما.

— كارين وايفا تركتا لك كلمة.

— أين ذهبتا؟

— إلى مراکش. ثم ستقصدان الصورة.

— متى ذهبتا؟

— هذا الصباح. (توقفت أمام باب قديم لون طلائه أزرق مُمَشَّش.)

هنا.

— أعرف. لقد نعتته لي أمك.

دقت على الباب. أطلت تانيا من النافذة الصغيرة ثم ضحككت.

— ماما، افتحي. (اختفت تانيا ضاحكة). كارين وايفا، بحثتا

عنك ولم تجداك. أين كنت؟ (أطلت تانيا ماما، افتحي.

(اختلفت ضاحكة).

- كنت عند بنكي باشا.

أطل رجل.

- أبي، افتح.

- تاتيانا نازلة.

تأملت عيني تانيا الجميلتين الحاليتين. تبسمنا. سمعت ضحكة

تاتيانا تقترب. انفتح الباب. ضحكت لنا. سعدنا تتقدماني. سعدنا
دُرُجا ضيقة.

تاتيانا تضحك. استقبلني أبو تانيا بترحاب منحنيًا على الطريقة

الصينية. صافحني:

- جورج.

- علي.

ضحكت تاتيانا. قدمتي تانيا إلى أختها روز. توقفت روز عن

الرسم وحيثني بوجه مشرق. أحذية كثيرة معلقة على الجدران.

ضحكت لي تاتيانا. تبسمت لها. الأحذية المعلقة جديدة وبالية.

سألني جورج:

- كيف تركت «الثوكوتشيكو» الآن؟

- رجال الأمن السريون يفتشون الغرباء في كل مكان بحثًا عن

المخدرات.

- ضحكت تاتيانا. طرقات على الباب. قال جورج:

- تانيا، انظري من يكون!

أطلت من النافذة. انحسر الشوب البالي عن فخذيها الطريتين،
الجميلتين، الممتلئتين.

- أجوستين، أنت هو، انتظر.

قال أبوها:

- افتحي له.

ضحكت تاتيانا. مدّت لي سيجارة محشوة. من جديد استعرضت
الأحذية. قلت:

- رائعة هذه الأحذية.

قال جورج:

- تاتيانا هي التي تقتنيها.

دخل أجوستين. قال جورج:

- هيلو أجوستين!

ضحكت تاتيانا. أجوستين متوتر. جلس دون أن يفوه بشيء.
سألت تانيا:

- أين الرسالة؟

- نسيت. أووه، اسمع لي.

سألت بنكي باشا:

- أين كنت؟

- في القصر.

- كارين وايفا سافرتا.

- أعرف.

- وقالري؟

- في القصر.

- كيف هي؟

- تمثل دور أوفيليا بين الجدران والشموع. لا تنقصها إلا الزهور.

- إنها بدأت تمرض. وروبرتو؟

- لا أدري. ربما هو أيضا يمثل دور هملت في الشوارع التي لا

يعرفها. لا تنقصه سوى جمجمة «يورك».

- وشتاين، أهنأك جديد عنه؟

- لا أدري.

- ربما نفوه إلى الخارج.

ضحكت تاتيانا. أجوستين يدخن بشراهة. روز ترسم لوحاتها

وتعص شطيرتها المدهونة بالزبدة والمربي. تانيا تتأمل سيجارتها بحلم.

جورج يقرأ في صحيفة. قال بنكي باشا:

- جروفي مان Groovy MAN

سألته:

- ماذا هناك.

- نادا. NADA

هزرت كتفي بلا مبالاة. ابتسم جورج. ضحكت تاتيانا. قال

بنكي باشا:

- هيفي مان HAVY MAN توماتش مان. TOOMUCH MAN

- فار أوت. FAR OUT

طلبت روز سيجارة. مدتها لها أمها ضاحكة.

- تانيا، أين الرسالة؟

- آ، علي، نسيت، اسمح لي.

ضحكت تاتيانا. قالت روز:

- ماما، سيجارتي ليست محشوة جيداً.

أخذتها منها تاتيانا وحشّتها جيداً بالتبغ الأخضر. تانيا تبحث في

الأحذية عن الرسالة. قال بنكي باشا:

- ذاتس كool. THA'S Cool

- آ، هاهي.

أخرجت الرسالة من حذاء يلتمع.

- هاكها.

قال بنكي باشا:

- آيم أوب. I'M OP

قرأت: عزيزنا علي، فكرة السفر فاجأتنا. قررنا الذهاب إلى مراکش.

إذا لم تعجبنا فسنذهب إلى الصويرة... قيل لنا أن هناك أجمل قراها

وهي «الذبابات». إن الهيبز أسسوا هناك عيشاً جماعياً. الحياة في

مراكش أو في الصويرة أفضل من طنجة الخيانة كما قال عنها جان

جنيه. الحق بنا حين تستطيع.

نحبك: كارين وايفا

قال بنكي:

- بايبي مان. BABY MAN كاط مان. CAT MAN مراكش شيك.

MARRAKECH CHIC

وضعت الرسالة في جيبي. تانيا تحلم في عيني. نهض أجوستين وخرج دون أن يودعنا. ضحكت تانيا. جورج مستغرق في قراءة جريدة. روز ترسم لوحاتها التجريدية بحلم. تأملت تانيا. هدوؤها شهواني. لم أعد أقدر أن أقول: لا لما هو لا، ونعم لما هو نعم. كما يقول الإنسان، أحياناً، الجحيم أو الجنة. حتى الأبله يعرف أن السماء فوقنا. نظرت إلى تانيا بشهوة. ضحكت تانيا. أتخيل نصف وجه تانيا ونصف وجه روز ينبثقان من وجه تانيا. جورج يبدو طيباً. أنا دائخ بين ما أعيه وما لا أعيه. بين ما حدث وما يحدث أو لم يحدث بعد، وساقا روز ووجه تانيا نصفاً وجْهَيَّ ابنتيهما. إن للفرج طعم الصودا. قليل من الملح في ماء الصودا. للفرج طعم لحم الجلد في الصيف تحت ظل شجرة. طعم الفرّج مازال في فمي. ضحكت تانيا. ضحكتها الوردية الرُمّاية تبعث طعم الصودا في فمي. قالت روز:

– بابا، أنظر، هل يعجبك هذا اللون؟

قال بإعجاب:

– أوه، نعم. رائع. استمري.

كنت أهوى صنع تماثيل الحيوانات من الطين. دخل أبي. كنت أصنع تماثلاً لطائر. حطمت تماثلي وقال صافعاً لإثاي:

– أخرج. «برأ» أيها الملعون. هذا ما يبقى لك أن تصنع. أخرج وابحث عن شيء آخر تفعله.

تبسمت روز لأبيها. عبست في وجه أبي وخرجت إلى الحي لاتضارب مع أول طفل يمازحني. ضحكت تانيا. بكّت أمي. تانيا

تحلم وتانيا تضحك. أختي «عالية» تحمل سطلين من الماء ماشية في الوَحْل حافية والأمطار تسقيها. ماذا سيقول الذين عملت معهم حين يعلمون أنني طلبت استقالي من عملي؟ ذكريات قذرة مازالت عفونتها في ذهني. قال لي أحد رفاق العمل: «تزوج. الاستقرار، هذا هو المهم في الحياة. هل هناك أفضل من الحياة الزوجية؟ إذا شئت سنبحث لك عن فتاة طيبة، بنت عائلة محترمة... ضحكت في خيالي بجنون. قلت له بهدوء: «شكراً. معك الحق. ليس أفضل من الزواج». ثم أضاف بنفس الطيبة الكريهة: «فكر. فكر قبل فوات الأوان. الإنسان يعيش ثم يموت ولا بُدَّ له من أن يخلف ذرية صالحة تخلد ذكره بين الناس». بصقت على وجهه وركلته وصفعته في خيالي. كتبت لي أمي أيضاً رسالة في هذا الموضوع الكريه: «ولدي العزيز... تعال في أقرب وقت. عندنا مفاجأة سارة لك». وحين سافرت وذهبت عندها على عجل قالت لي: «لقد وجدنا لك فتاة جميلة جداً في الرابعة عشرة من عمرها. إنها يتيمة، ليس لها سوى جدة فقيرة ومريضة. سلوك الفتاة حسن، خجول ومسكينة. هذه فرصة العمر يا ولدي».

رفضت بلطف وعدت إلى الدار البيضاء. بعد سنوات قالت لي: «هل تذكر تلك الفتاة التي كنا قد اخترناها لك للزواج بها فرفضت؟

– نعم، أذكر جيداً.

– إن لها اليوم طفلة وهي الآن حيلة.

– وبعد، ماذا في ذلك؟

– لكي تدرك أنها فتاة كانت صالحة لك لو أنك تزوجتها.

- لكن يا أمي حتى الكلاب تلد.

الأصوات الكريهة لم تكن تتعب. «أُسَلِّمُ نفسك لما هو طبيعي ومقدور. كن مثل الناس: مثل هذا أو ذاك من العقلاء. افعل هذا. اترك هذا. هذا لا يليق بك. «لكني، في كل مرة كنت أحاول فيها أن أكون مثل الناس، أبدأ في كراهية نفسي وكراهية من أوصاني أن أكون مثل هذا أو ذاك. إن أفواه الناس، في أغلب الأحيان، تفوه بما يشبه رائحة المراحيز.

- ١١ -

الشارع الرئيسي يبدو اليوم أكثر اتساعا. شذبوا الأشجار. رؤوسها مقصوصة. لمست رأسي: سالفاي يتدليان. أينبغي، أنا أيضا، أن أقص شعري؟ ساعة المتجر مازالت عاطلة. إنها في عطلة صديئة. المدينة في عطلة، أنا في عطلة، لكنها عطلتي قد تطول أكثر من الساعة والوافدين على المدينة. الرفاق الذين عرفتهم هنا لهم أيضا عطلةهم البوهيمية. الله هو أول من أخذ عطلته بعد أن انتهى من خلق العالم. هذا ما قرأته في الكتاب المقدس. خلقه وتركه يفيض ويتم على هواه. أتمنى ألا يكون هناك ندم. خلقه في فصل الربيع. هذا ما قرأته. يا حسرة على شباب العالم! يا بكارة مريم التي لم تُفْتَضَّ وتلك المجادلة التي عانقت قدمي المعلم وغسلتهما بدموع استغفارها. من نظر إلى امرأة واشتهاها في نفسه فقد زنى معها سبعين مرة. كيف لا نكون زناة؟ لا تشته زوجة صديقك. النبي لوط ينجو بجلده مع ابنتيه وأمهما المولَّهة برئيس الهيكل تلتفت خلفها فإذا بها عمود من ملح ناري. أهو فضول النساء أم هو العشق القاتل؟ حتى الملائكة في إهاب البشر نجوا من الاغتصاب. الأم العاقر تلد ابن العالم مكتوب عليه ألا يقرب النساء. موسى يقتل رجلا ويطلب من أخيه هارون الفصيح أن

www.mlazna.com

^ RAYAHEEN ^

يدافع عنه أمام فرعون. محظوظات هن أرامل شهداء الحرب في زمان المعجزات. الماء ينبع من الصخر. طوبى للظالمين! الرغيف الواحد يتوزعه الجميع فيكفي. بورك للجائعين في زمن الوحي! العصا تشق البحر فتصل الشمس لأول مرة في تاريخها إلى أرض البحر. العميان والأبرصون يُشَفُّون باللمس. الميت يقوم بالصوت. يوسف يفسر رؤيا السنابل السبع اليابسات والخضر. ياشباب عالم الأنبياء الطاهرين والكهان. لقد استوت اليوم رفاتكم في أعين الناس.

بدأت انسجم مع هذه المدينة. أنوار الشارع تلمع. باخرة تصفر ثلاث مرات. لا أعرف معنى الثلاث. لم أسافر في باخرة ولا في طائرة. همين أنتقل من مدينة إلى أخرى فكأنني أنتقل من زنزانة إلى أخرى. إنني مثل هذا القميص الذي ألبسه، فعندما يتسخ سأغسله لألبسه من جديد. الصداق الآن في رأسي يقول لي: إنك لم تعد تنام جيدا. تنام مثل أرنب أو فأر. خلاياك تفسد أكثر من اللازم. أنت لست أرنباً ولا فأراً. كن إنسانك.

تطلعتُ إلى نافذة غرفة روبيرتو المطلة على سور الكسالى والبحر والميناء. إنه هناك. شخص يتظاهر أنه ينظر إلى واجهة متجر ولكنه يفحصني بنظراته الجانيبة. فكرت: ماذا، هل سيطلب مني أيضا النُمس أوراقتي؟ نظر إليّ هذه المرة شزرا. لا بد أنه أحدهم. إنهم مبثوثون في كل مكان. رغم المزعجات التي تحدث لي في هذه المدينة فإني بدأت أحبها مثلما أحب امرأة تخون محبتها ثم تعود إليه تائبة. سمعت خرافة «طنجوية» تقول بأن النبي نوح هو أول من اكتشف هذه

المدينة بعد الطوفان. عادت الحمامة حاملة في منقارها غصن زيتون وفي أرجلها عينة من طين فصاح نوح: - طين - جا.

تعال هنا، تمش إلى جانبي. ارفع يديك. تكلم. ماذا تعمل؟ هل أنت مسرور؟ ما يبقى لهم أن يسألوا عنه هو: ماذا فكرت أمس؟ ماذا حلمت؟ ما معنى هذا الحلم في رأيك؟ قيم فكرت هذا الصباح؟ والآن قيم تفكر؟ ماذا أنت فاعل غدا؟ هل تعبد الله؟ متزوج؟ من هذه التي معك؟ أرنا عقد زواجكما. أرنا تواصل الضرائب. أعطنا أسماء الذين قابلتهم هذا اليوم. اذكر لنا أسماء الذين تفكر أن تقابلهم. هل هناك أشخاص تحبهم؟ ماذا يعملون؟ هيا، اذكر لنا كل ما في رأسك. اذكر لنا ماتعرفه وماتحاول أن تعرفه.

المرأة تنتظر المصعد. فحصنتي بريبة وخوف. نظرت إليها بجنون. خفضت رأسها واستدارت لتصعد الدرج. قلت لها: - يا سيدة، ها هو المصعد يهبط.

التفتت بريبة عدائية وصعدت الدرج بخفة: أهى خائفة من أن أغتصبها أو أخنقها داخل المصعد؟ دخلتُ المصعد وضغطتُ على زر الطابق الرابع. نظرتُ إلى مرآة المصعد الصغيرة. هل صرت مخيفا إلى هذا الحد؟ من خلال زجاج باب المصعد رأيت امرأة وطفلا ينتظران في الطابق الثاني. رفع الطفل أصبعه مشيرا إلى المصعد. فتحتُ الباب. نبج كلب صغير في وجهي. قالت صاحبتة بالفرنسية:

- أسكت، جاستون!

قبل أن تدخل المرأة المصعد ألقت عليّ نظرة فاحصة. ضغطتُ على

الجرس. ماذا يكون فاعلا الآن؟ بعد لحظة اعتم ضابط الرؤية. هاهو. إنه يرى وجهي الذي تضيقه عين السمكة الصغيرة الميتة الكاشفة. انفتح الباب:

- أوه! أنت هو. كنت أنتظرك. ادخل. مستشار كني في هذه الليلة الديوبيسية - الباخوسية. محظوظتان عينا من يراك.

- ماذا هناك؟

- ش... ش... ش... عندي ثلاث غزالات مغربيات.

تأملت هياته المرحية.

- ثلاث؟

- نعم، ثلاث. أجمل منهن لم أر من قبل في طنجة.

- في نفس الغرفة؟

- وماذا في ذلك. إنهن مسرورات.

ثم ضحك بصخب. أنامله بدهشة. ابتسم لي. ضربني على كتفي.

- تعال. سأقدمك اليهن. يمكن لك أن تختار أية من تعجبك.

خذاها إلى الغرفة الأخرى إذا كنت تحشم أن تفعل الحب أمامنا.

الأولى مستلقية على السرير تدخن وتشرب. على الطاولة زجاجة

ويسكي. الثانية تتصفح مجلة «البلاي بوي». الثالثة تدخن وتشرب

قهوة سوداء. حبيتهن. ملا لي روبيرتو كاسا. قال:

- إنه صديقي المغربي الوحيد. (التفت إلي). أليس كذلك يا علي؟

ابتسمت له.

- صحيح. (أضفت له): لقد بعثت بطلب الاستقالة من عملي.

- أترك هذا إلى الغد. احتفل معنا الآن. إننا نحتفل.

ضحكت الأولى. دخنت. شربت ثم قالت ضاحكة:

- روبيرتو، مزيدا من الويسكي من فضلك.

صَبَّ لها ثم جلس على حافة الفراش. قال لها:

- أحب شعرك وعينيك.

فكرت: يحب دراهمه في شعرها وعينها. شربت من كأسه. أما

أنا فعلي أن أحب حياتي الجديدة ولأ أنسحق. قال روبيرتو:

- للآ الصافية في يومها السابع. هذا ما لم أحلم به من قبل في طنجة.

علي: سنصير غنيين. صدقني. سترى حينما أحدثك عن اكتشافاتي

الجديد. في طنجة كنوز لم تُكتشف بعد.

فكرت: عماذا يتحدث؟ قالت الأولى:

- روبيرتو، املا لي كأسه.

نظرت إليها. بدأت تشمل. ملا لها روبيرتو وللثانية والثالثة راشقة

قهونها السوداء مدخنة سيجارتها بيدها الأخرى. شربت ما تبقى في

كأسه. ملاها روبيرتو. فكرت. إن البشر مخلوقات مسكينة. إن عدم

الرضا ينخر عظام العالم.

- اشرب. فكرت فيك. قلت لنفسه: الأفكار المزعجة تمتصه الآن

في مكان كنت تحتل الجلوس فيه.

- كنت في منزل ناتيانا.

- آه! تلك المرأة الحمقاء. بنتها روز وتانيا تشبقانني بجنون.

- ابدأ بالدجاجة ثم التهم كتاكيتها.

- انك على حق. هي الضريبة.

باس الأولى. بستُ أنا الثالثة في خيالي. نظرتُ في اتجاهها دون أن أنظر إليها فالتفتتُ إليَّ وبَسِمَت عيوننا. قالت لي فتاة يوما: وجهك يشبه وجه أخي. قلت لها: وجهك يشبه وجه أخي. ومثلما يضاجع روبرتو دراهمه بسخاء متناوبات عليه ضاجعت أنا تلك الفتاة وكلانا يتخيل ما لا يُقال، ولكننا نفعله بهوس. قالت لي بعد الصبحو من اللازمان: - وجهك يشبه وجه أخي. فكرت: وجهي يشبه وجه أخي. أضفتُ لنفسِي: وجهك يشبه وجه أخيك ووجه أخيك يشبه وجه أبيك. قلت لها: وجهك يشبه وجه أخي ووجه أخي يشبه وجه أمي.

قال روبرتو:

- علي.

- نعم.

- فيم تفكر؟

- في لا شيء. إنني أشرب وأحلم بوجوه.

- تفكر في شيء. لا بد أنك تفكر في شيء ما.

- صحيح.

- ماهو؟

- في ميدوزا التي التوت على رأسها الأفاعي و الدماء التي تسيل

منها، وصراخها المرعب وعينيها الجاحظتين.

- كفى من هذا التشاؤم. تعال معي.

قال لمن:

- لحظة، لحظة قصيرة.

تبعته خارج الغرفة إلى الممر.

- أيهن تريد؟ (تأملتُ باسمها). السمرء؟ الشقراء؟ الأخرى التي

تستلقي على الفراش؟

- لكن... أنا... ليس عندي...

- أعرف. أعرف كل شيء. اسمع، لا تفكر في شيء. لقد استلمت

هذا المساء خمسمائة دولار. خذ أية من تروقك. هناك غرفة الزنجي

أندي شاعرة. لقد سافر إلى مراكش صحبة فتاة أمريكية. ترك لي المفتاح

لأفعل في غرفته ما أشاء. هيا، من تختار؟

- شاربة القهوة.

- آ، السمرء. (ضحك) حسنا. رائعة. إنها رزينة. أعجبتني، لا

تتكلم ونحن نفعل الحب.

دخل غرفة الفتيات واتجهت أنا إلى غرفة الزنجي المسافر. كان بابها

مفتوحا. كل أثاثها فراش وطاولة وكريسيان. على الجدران صور المناظر

الطبيعية المصورة عن الأصل، وصورة فتاة عارية شبيهة بالصورة العارية

التي تنشرها مجلة «بلاي بوي». ضحكات في الغرفة. فكرت في

تاتيانا. أنا تضاحكت. دخل روبرتو ماسكا السمرء من يدها.

ابتسمت الفتاة بحزن حلو. فكرت: الحب مع فتاة كشيية يشبه

اغتنصابا. ذهب روبرتو. جلسنا على السرير صامتين. مددتُ لها علبة

سجائر فرجينيا. سحبتُ واحدة ويدها راعشة. أناملها رقيقة وطويلة

وأظافرها جدُّ مُقلَّمة. ترشف من سيجارتها وتعض على أظافرها .
الواحد تلو الآخر بعصبية. قلت لها:

- هل يروق لك أن تبقى هنا أو نعود إلى الغرفة الأخرى.

قالت بصوت هامس:

- سنعود حينما ننتهي.

عاد روبيرتو بكأسين من الويسكي. وضعهما فوق الطاولة ولامس
باطراف أصابعه خدَّ الفتاة كأنها ابنته.

- تمتعا جيدا.

ثم انسحب باسمنا لنا. ضحكات صاحبة في الغرفة. ناولتها
كأسها. تبسمت عيوننا. أفاقت قليلا من شرودها. بدأت تستحضر
نفسها وتصحو. ألقت نظرة على جدران الغرفة. بدأت تُشِفُّ. لم تعد
ضبابية في عيني.

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^

- ١٢ -

أجوستين يتأمل السقف. فاليري تَمَشِّي. تتالم. تطل على البحر
من النافذة. وجهها يتقلص. تغني كلمات. حركات يديها متوترة.
تعض شفتيها باستمرار. تلوي خصلات شعرها على أصابعها كما
يفعل أجوستين حين يكون سيء المزاج. تدير خصلاتها على سبابتها
وتشدُّ بعنف. نظراتها المتباسمة، المهووسة، تُهدِّدُ آلامها. تلتفت
فجأة إلى جانبيها أو خلفها. تتأملنا ضاحكة ثم تعبس. حركاتها لا
إرادية. تتجشأ. تمشي إلى الغرفة الأخرى، تعود ثم تذهب وتعود.
سالتُ بنكي باشا بهمس:

- وإذا لم تحقق نفسها اليوم؟

- لا أدري ماذا ستفعل. قد تحاول أن تقفز من النافذة، ولكنني لن
أمنعها. لا بد أن نعثر على مخدر كيفما كان نوعه. أنا أيضا أعصابي
ثائرة.

همست له:

- أنظر إليها. ماذا تريد أن تفعل الآن؟

- دعها تتصرف. لا تكلمها حتى لا تثور علينا.

أخرجتُ المحقن من علبته. مدت ذراعها. صرخ أجوستين:

- فالري، لا تكوني مجنونة.

قفز إليها ولوى معصمها. سقط المحقن من يدها. أطلق معصمها
فصفعته وبصقت على وجهه.

- اتركني أفعل ما أريد. أخرج من حياتي.

مسح بصاقها من على وجهه وقال:

- جُئي كما تشائين، ولكن ليس هنا في قصري.

فهققت بصخب ثم قالت:

- ألا تخجل من أن تدعو هذه «الخربة» قصرا.

- إنه مكاني، وأنا حُرْبَان أدعوه بما أشاء.

- جبان.

ضحكت بهزه. تذهب وتجيء بقلق متزايد. التفت أجوستين
المحقن. تعرض على شفيتها. ثَقُلَ أظافرها بأسنانها. ردَّ أجوستين
المحقن إلى عليته ووضعها إلى جانبه. سألته:

- ماذا تريد أن تفعل.

- ألا تعرف هذا؟ تريد أن تحقن نفسها بالهواء في الشريان. فالتثقلت

نفسها بعيدا عنا.

قلت بعد لحظة:

- سافرت أيضا أسيرة تاتيانا إلى مراکش اذن.

- كل الذين يخشون على شعريهم سيسافرون إلى مراکش أو

الصويرة أو يغادرون المغرب إلى عالم آخر.

- هل حَلَقُوا البعضهم؟

- ليس بعد. أعطيت لهم أربع وعشرون ساعة لكي يقصوا خلالها

شعرهم. إذا لم يقصوه، كالناس العاديين، فسيحلقون لهم بالموسى.
هذا ما قيل لهم.

- إنها حملة لتهجيرهم من هنا.

- ربما.

فالري هدأت قليلا. تنظر من الشاذة إلى السماء والبحر. لمست

شعري. سأقصه غدا. قلت له:

- روبرتو بدأ يقتني الأشياء الأثرية: لوحات، تماثيل صغيرة،

أصداف، نقود...

- هل رأيت بعضها عنده؟

- أراني ثلاث لوحات: واحدة تمثل المسيح مصلوبا، أخرى لمريم

العدراء تبتهل ولوحة كبيرة لامرأة نصف عارية رسامها من القرن

الثامن عشر كما يعتقد هو. سيحصل أيضا على لوحات لرسامين

معاصرين من بينهم بيكاسو ودالي. لكن جنونه يتضاعف لاقتناء لوحة

تمثل امرأة مغربية في الزي المغربي القديم: للأصافية في يومها السابع.

- حتى بيكاسو ودالي.

- هكذا قال.

- لكن من أين سيحصل على هذه التحف؟

في حي «السقاية الجديدة» يوجد يهودي عجوز له ما يشبه متحفا

في منزله. بعض اللوحات بدأت تشوهها الرطوبة. إنه يُقَضِّي آخر أيامه

في تأملها والحديث عنها مع بعض الأغنياء الذين يزورونه. لقد ألف

كتابا يروي فيه قصة هوايته الفنية، مع صور أخذت له مع بعض مشاهير

الرسم في بداية هذا القرن. لقد عاش هذا اليهودي العجوز في باريس عندما كان بيكاسو يرسم لوحات زرقاء ووردية ودالي يُحاضر عن السريالية واضعا إحدى قدميه في إناء مليء بالحليب. ضحك وقال:

- لقد سبق لرامبو أن خراً في إناء من الحليب وجده قدام الباب عندما خرج مرة غاضباً من منزل فرلين.

- صحيح؟ لم أكن أعرف هذه الحكاية. أعرف فقط أنه يريد أن يكون جيروم بوش القرن العشرين. (أضفت:) طلب روبيرتو من اليهودي أن يصور بعض اللوحات فوافق العجوز.

- إنه أيضاً يسمح له بتصوير لوحاته.

- اليهودي مُصِرٌّ على رؤيتها أمامه حتى الموت. لا يريد بيع احداها بأي ثمن. إنها روحه. لا يسمح بأدنى اصلاح فيها.

فالري تمشي من ركن إلى آخر حاملة. سال:

- من قدم روبيرتو إلى هذا اليهودي؟

- يهودي آخر. إن روبيرتو مع الكل وليس مع أحد: لليهود يقول لهم يهودي، للنصارى مسيحي وللمغاربة مُوحّدي مُسلم. لا فرق عنده بين أول الانبياء وآخرهم: «هذه هي أحسن وسيلة للعيش هنا يا علي». «هكذا قال لي. إن جنونه الكبير يتضاعف للحصول على هذه اللوحة. هكذا قال لي.

- وبعد ذلك.

- سيذهب إلى مدريد أو باريس أو إلى أي مكان في أوروبا لبيع كتبه.

بدأ يشمل. يدخل سجناء أمريكية بشراسة. يحبس الدخان في رئتيه مثل بنكي باشا. ليل هاديء، قمري. أشجار النخيل ساكنة. يشرب أكثر مني. كنا نشرب كونيكا فوندادور. وضع يده على جنبه الأيمن: - كبدي معلقة وصفرائي تكاد تنفجر. بدأت أفقد مناعتي هنا. في بوليفيا، سان فرانسيسكو وألاسكا كنت أشرب الكحول أكثر من هنا. كنت أتمنى أن أعمل فلا أعمل. صديقي سلفادور كان يقول لي: «روبيرتو، إذا مت قبلك فلا تنس أن تسقي قبري بزجاجة من الكونياك الجيد». كان يحب زهور الأوركيد. كنت أقول له: «كن مطمئناً. سأضع على قبرك زهورك وأسقيها بزجاجات من كونيكا نابوليون. إن الأموات مثلك يستحقون أغلى وأجود ما في الحياة. إن أمكن أيضاً فسأصحب معي فتاة جميلة لتنطرح على قبرك تارة على بطنها وتارة على ظهرها». قبل أن ينتحر بثلاثة أيام اصطحبنا إلى منزله فتاتين. كان يحب دائماً أن يفاجيء الفتاة الجديدة التي تكون صحبته. حين تعرت فتاته أمامه أخذ ثيابها ورمها من النافذة إلى الشارع. فتح لها خزانة مليئة بثياب النساء الفاخرة لتختار ما يلائمها من الأثواب. كان يمتلك جميع أقيسة الملابس النسوية. أحياناً يحتفظ بثوب الفتاة

الجديدة إذا أعجبت راثحتها. رأيت مرة يخرج «سليبا» من جيبه ويمسح به فمه. قال لفتاته في تلك الليلة: «أتمنى لك نهاية مملوءة بزهور الأوركيديا. إن زهرة الأوركيديا أخت المرأة الجميلة. المرأة الجميلة ينبغي أن تكون لها روح قاتلة ولأدب جمالها في عين الرجال». وجدناه ميتا ممددا على فراش من زهور الأوركيديا. كان يتمنى مثل هذه الميتة الأوركيدية لنفسه ولكل من يحبه. ماذا تقول أنت عن إنسان يقتل نفسه بأحب الزهور إليه؟.

— مات ميتة يضحك لها الأغبياء ويحتفل بها الأذكىاء.
قال ضاحكا:

• — برافوا من أجل هذا سنحتفل بقدحين آخرين ذكرى صديقي وصديقك أيضا سلفادور. يجب أن يكون لك أيضا أصدقاء من الأموات حتى ولو سمعت بهم لأول مرة.

نادى على الساقى:

— قدحان آخران. (أضاف لي:) أعتقد أن مثل هذا الساقى سيموت سعيدا؟ إن خريطة الشقاء مرسومة على ملامحه. أربي وجهه إنسان أقل لك بداية حياته ونهايتها.

أما أنا ففكرت في المثل: «نصف قلبي عامر بالحب والنصف الآخر عامر بالصدقة».

وإذا لم أسكر فماذا ينتظرنى؟ ماهي الزهور التي أحبها أنا؟ أم أن لا زهور لي؟ لم أهتم أبدا بأسماء الزهور إلا بروائحها. فحين أقرأ أسماءها في الأشعار والروايات والقصص أقول لنفسى كأي سليل الذين لا

يعرفون أسماء الأشياء، وإن رعوها، كيف هي ألوانها؟ أشكالها؟ روائحها المختلفة؟ لا شك أنها زهور رائحة وإلما الحديث عنها بمثل هذا الولك المهوروس؟ ربما السبب شفيف وأنا المعتم. أو ليس أن معرفة الزهور هي تربية أو حالة مستثناة؟ لا أذكر أبدا أن أسرتي الشقية بعمرها اشترت يوما باقة زهور. كان لنا الريحان للاموات والزهور والورود بدعة للأحياء والاموات. كان كل فقير مسلما، وكل ثري نصرانيا. غرس الزهور والورود أعلى من الخبز. الآن ربما يحق لي أن أسأل: كيف هي زهور الأوركيديا؟ شكلها؟ رائحتها؟ أمي في المغرب؟ تبقى أذن زهورا في ذهني بلا أسماء وأسماء بدون زهور.

لأول مرة فهمت أن الورد أئمن من الخبز. لا مصلحة مع الذين سرقوا لي خبزي ووردي. المحاكمة ليست دعواي.

أخرج روبيرتو حافظة نقوده:

— في هذه الليلة سأقص عليك أكثر الأشياء كتماننا لك. سأطعنك هنا (وضع قبضة يده على مكان قلبي). إذا أنت بحث بها. قلت لنفسى: أما أنا فلا أخاف أن يعرف الناس ما أكتمه. ثم ابتسمت له. أراي صورة منزله الخشبي في الأسكا.

— حول هذا المنزل يوجد إنسان مدفون. محفوظ في الثلج كسمكة كبيرة. إن حكاية قتل رجل من أجل امرأة لم تنته بعد في هذا العالم الذي خلقته مأساة الفروج التي لا تنتهي. وداعا يا الأسكا هكذا قلت لنفسى بعد يومين في طريقي إلى كولومبيا. وداعا يا ليتنا قتلنا رجلا من أجلك. من أجل أن نقول بأنني كنت رجلا. ربما لن أراك قط. قد

يقتل رجل آخر من أجلك. كنت أوشك أن أقتلها هي أيضا لاحقق
لاوسكار وايلد حلمه في سجنه: «الإنسان يقتل أكثر الذي يحب».
كلمات. كلمات. ما ينقصني هي الكلمات. لنهض. هذا المكان لم
يعد يوحى بالكلمات والأفكار.

نادى على التادل. خطوط خطوات إلى الامام. الكلمات الناقصة في
مكان لم يعد يوحى بشيء. هذا أيضا مثل زهور الأوركيد. إنني في
حاجة إلى مزيد من الخيال. إلى قوة التخيل لأفكر في الانتحار
بالأوركيديا وقتل رجل من أجل امرأة قد لا أراها مرة أخرى.
قال:

• - لنعبر إلى الرصيف الآخر إذا شئت. الظلام الخفيف يريح عيني.
فرك عينيته المتعبتين، الرامشتين باستمرار. خيال روبيرتو رائع،
لكنه خيال مخيف.

- ١٤ -

مثل هذه الأسئلة، التي يسألوننيها، بدأت تقلقني وتخنقني. ماذا
تعمل؟

كم عمرك؟ من أين أنت؟ متزوج؟ أبوك مازال حي؟ ماذا تفكر
أن تعمل في طنجة أو في مكان آخر؟ إنك تبدو أقل من سنك. ماذا
يعمل الشخص الذي رأيناه معك في مقهى سنترال يوم كذا، في ساعة
كذا؟ من أين جاء؟ هل يتعاطى المخدرات؟ أي نوع يتعاطى؟ من
يمدهم بالنقود هؤلاء الهيببون حتى يعيشوا حياة بلا عمل؟ وأنت،
هل تتناول معهم المخدرات؟ كيف هو تأثيرها عليك؟ قل لنا: أهني
أيضا تتحسس تلك الفتاة التي تكون دائما معك أو مع الشخص الذي
يتكلم الأسبانية والانجليزية والفرنسية الذي يكون معك أحيانا؟ هل
ضاجعتها؟ يبدو عليها أنها شهوانية جدا. لأبد أن تكون شاذة في
علاقتها الجنسية. إن فتاة تعيش حياتها بهذا الشكل الاباحي لا يمكن
أن تكون سوية. لم نعد نرى الشخص الذي يكون معك أو معها.
لا يكاد الواحد هنا يعرف شيئا عن هؤلاء الهيببون حتى يختفوا. اسمح
لي. إنني أسالك فقط.

طرقت الباب. تراجعت قليلا إلى الوراء. تطلعت إلى النافذة. طفل

يضرب كرتة على الحائط بيديه ثم يتلففها. طرقتُ الباب ثانية. قال الطفل:

- الفتاة التي تسكن هنا كانت أمس ترمي الاثاث من النافذة. كانت تصرخ وتبكي قاذفة الاشياء من النافذة.

- وماذا حدث لها؟

- لا شيء. جاء رجل فتحت له الباب وأعاد الاثاث إلى المنزل.

- وبعد ذلك؟

- لم تعد تقذف الاشياء من النافذة.

- ألم يات البوليس؟

- لا.

- شكرا.

انفتح الباب. تأملتني بكآبة. كم هي حزينة وشاحبة!

- هل أدخل؟

لم تجبني. استدارت وتركت الباب مفتوحا. أمسكتها برفق من كتفها:

- فالري، ماذا حدث؟

غمغمت بعياء وتعاسة صاعدين الدرج:

- أووه، أنا فقط متعبة.

- وأجوستين؟

- سافر مع تاجر في الحشيش إلى البادية.

- لماذا؟

توقفت. ضحككت ضحكة خفيفة بهزة. كلماتها متمزقة. صوتها واه. قالت:

- ليكتب الشعر ويعبد الطبيعة. لقد صار أرواحيا. (لا تكاد تنماسك. أوشكت أن تسقط. أسندتها).

«تعبت من الجدران والشوارع. إنني في حاجة إلى منارة. أشتاق إلى القمم». هذا ما كان يردده قبل أن يسافر. أنشد بعض قصائد لبيرون وكيتس وشلي. أنشدنا معا قصيدة أدوناييس لشلي. كان يرثي نفسه من خلال رثاء شلي لصديقه كيتس.

دخلنا غرفة الجلوس. الاثاث مبعر. صحنون وأقداح وزجاجات مكسورة وشموع على الأرض واقفة وطائحة. جلسنا. قلت لها:

- لقد حدثني في آخر مرة كثيرا عن ريهان باسكال، الشاعر الكسندر بوب، عن ملتون والأوبانيشاد.

- هل معك سجائر؟

- نعم، لكن ماذا حدث لك أمس؟

هزت كتفها وقالت:

- أووه، لا شيء! كنت متوترة.

سحبت السيجارة بيد راعشة، شاحبة.

- وأنت، هل ستبقين هنا؟

- أمي لم ترسل لي النقود بعد. حين أكون إلى جانبها تعطيني كل ما

أريد و أعيش كما تريد، لكن حين أكون بعيدة عنها تدير حياتي كما

تدير هي. إذا لم أذهب إلى مراكش أو الصويرة فسأعود إلى باريس.

(تنهدت بضيق) . كم أكره أن أقضي الشتاء في باريس! (أشعلت لها السجارة) . و أنت؟

- لست نادما على امتقالي من وظيفتي، لكنني أيضا لست مسرورا في وضعي الجديد. إن أصدقاءنا رحلوا. أفكر أن أهاجر إلى أوروبا: هولاندة، فرنسا أو الاسكندنافية. لست أدري بعد إلى أين سأذهب. ما رأيك أنت؟

- أنا أيضا لا أدري. لا أعرف بالضبط الحياة الجديدة التي تريد هالي أمي.

بدأت أحس بنفس وحدة اليوم الأول الذي جئت فيه إلى هذه المدينة القحبة. فكرت: إنها مثل فندق كبير هذه المدينة: محجوز في الصيف وكاسد في الشتاء. هذا ما يقوله أهلها. من قبل كنت أقول لنفسي. ها أنا موظف. اليوم أقول لنفسي. ها أنا عاطل. إن هذا يشبه حساب الأطفال: أعطاك أبوك تفاحة وأعطتك أمك تفاحة، كم عندك من تفاحات؟ إذا أكلت واحدة وأعطيت الأخرى لاختك، كم يبقى معك؟ إنني الآن مثل هذا الكم يبقى معك. لقد أكلت تفاحة أبي وتفاحة أمي بيرزهما وقشرهما دون أن أعطي الأخرى لاختي. (عيننا فالري مغمضتان) سأتركها ترى نفسها. تطل على أعماقها. تفكر أو تحلم. تفكر في حلم أو تحلم لتفكر. ربما تحلم وتفكر معا. أو هي مجرد شاردة. قد تكون مثلي: لا أحلم إلا لأفكر. لا أفكر قط كيف ينبغي لي أن أحلم. الانسان عند روبرتو إما يفكر أو يحلم. أما أنا فأحلامي هي التي تختارني. أجدني منزلقا في حلم مثلما يغلبني النوم

جالسا على مقعد وثير أو في حديقة أو مطالعا في كتاب يذكرني بتجربة عشنا فأتخلى عن قراءة الكتاب لاستعيد تجربتي. إن هذا الانزلاق من اليقظة إلى الغفوة يشبه الوطأ على قشرة موز. كيف يستطيع الانسان اختيار سقوطه إذا هو ووطأ قشرة موز في غفلة؟ ما يحدث هو أنني حين أسقط في حلم أجدني واقعا في حلم تلو حلم. هل أستطيع أن أقول لفترة من حياتي:

لا. أبدا لم أعشك. مثل هذا الإنكار يشبه كذبة الأطفال في قسم: ولا. لست أنا الذي فعل هذا يا أستاذ. ثم يشير خفية إلى أحد زملائه إذا خاف من العقاب.

نظرت إلى فالري. أغمضت عيني. بدأت أرى نفسي في الظلام. فكرت: هل أستطيع أن أفكر أنني لا أفكر؟ محتمل. لكن، أيعني هذا شيئا؟

كشف روبرتو الغطاء القماشى عن اللوحة:

- أنظر هنا يا علي، إنها روعة. (ضحك). للآ الصافية في يومها السابع. هي العروس الحقيقية عندكم هنا منذ أكثر من نصف قرن. عروس أعدت للحريم. لا يمكن أن تنزي بمثل هذه الثياب الفاخرة وتتحلّى بهذه الجواهر إلا عروس خلقت للحريم وتموت في الحريم. عروس لم يكن ممكنا أن يرى وجهها إلا زوجها، أقاربها، العبيد المخصيون والنصراني الذي سمع له أن يرسمها. هكذا قرأت أو سمعت.

فكرت: كيف استطاع الحصول عليها؟. قلت بدعابة:

- هل قتلت اليهودي؟

ضحك بصخب ثم قال:

- كلا. الأمر أسهل. لقد تعرفت على حفيده. وجدته في حاجة إلى

المال. في العام الماضي رسب هو وزميلته اليهودية البولونية الأصل في

البكالوريا. وهذه السنة لا يطبق رسوبه ثانية فبدأ يفكر في الهجرة إلى

كندا. إنه يذهب كل مساء مع زميلته إلى مرقص غاسبل. GOSPEL.

- كم كلفتك؟

- مائة دولار. وعدته بمائة أخرى عندما استلم المال من نيويورك.

إن جزءاً من روح جده قد باعه بمائة دولار. الأجزاء الأخرى الموزعة على اللوحات الأخرى هي أيضاً ستباع الواحدة تلو الأخرى. إن أرواح الأجداد اليوم رخيصة.

— ألن يفتقد جده اللوحة؟

— لا بد أن يكون قد افتقدتها هذا الصباح. إنه يتناول وجبات طعامه ناظراً إليها. اليد إلى القم والعينان على اللوحات، هذا ما قاله لي حفيده.

— وماذا تفكر أن يحدث؟

— قبل أن يحدث أي شيء سنكون أنا وأنت خارج طنجرة. (أضاف:) هناك مغامرة أخرى.

— لوحات أخرى.

— أربع لوحات أو خمس ثم خمسة كيلو من الهاش وعشرة كيلو من الكيف المسحوق.

— هل تعرف المصير إذا...؟

— أعرف، أعرف. لكن ما الفرق بين بضع سنوات من السجن وهذا الوضع البائس؟

فكرت: إنه يعطيني درسا. يريد أن يمحو كل ما تبقى عندي من الاحتراس. معه الحق. متى أنقذني احتراسي؟ رب ما أفكر فيه أنا مرة أو مرتين يفكر فيه غيري عشرات المرات. لحظة صمت. سألني:

— قل لي، هل مازلت تفكر في فاليري؟

اتجهت نحو النافذة. قلت له مديراً لهظهري:

أنا؟ كلا. (استدرت إليه:) لم أكن متعلقاً بها أكثر من اللازم. إن علاقتي بها كانت عابرة.

— إنها فتاة حمقاء. إن حقن الشرابين بالهواء أو تمزيقها بشقرة الخلافة ليس هو الخلاص. من الأفضل لها أن تقوم بمغامرة أكبر من محاولة حقن الشرابين بالهواء.

— مثلما سنفعل نحن.

— ولماذا لا؟

— إذا شئت سنزورها معاً قبل أن نساfer.

— ليس لدينا الوقت. ينبغي لنا أن نغادر المدينة غداً. لقد اتفقت

مع شاب يسوق سيارة أجرة كبيرة. سنقلع من هنا في الثامنة مساءً. حوالي العاشرة ليلاً سنكون في سيئة. رتبت معه كل شيء.

— هل يعلم شيئاً عن الهاش والكيف؟

— كلا. اترك لي ذلك. إنني أعرف كيف أتصرف في هذا الأمر.

أشار إلى اللوحات:

— هذه ستقول لرجال الجمارك: لا شيء هناك خطير. (أخرج حزمة

أوراق مالية) وبضع أوراق من هذه ستؤكد لهم «لا شيء خطير هناك».

فكرت في كلماته: ما الفرق بين بضع سنوات من السجن و هذا

الوضع البائس الذي نعيشه؟ إما وضع أفضل أو بضع سنوات من

السجن. طالب، موظف، مستقيل ثم أما ما هو أفضل أو ما هو أسوأ.

ضغط على زر المسجلة. صوت ميري ماثيو: لوبال ألي بيانتو

سوترميني.

LE BAL ALLAIT BIENTOT SE TERMINER

الثامنة إلا ربعا. السيارة واقفة في منحدر طريق ثرفانتس. قال لي:
- ساعود بعد خمس عشرة دقيقة.

لم أفهم. غمزني مازحا. خرج من السيارة. جريت وراءه:
- إلى أين؟ ربما وقوفنا هنا سيثير شكوك رجال الأمن الليليين.
قال بصوت حازم:

- ارجع إلى مكانك. سأرجع بعد لحظة. (أخرج مطرقة صغيرة).
هل تذكر علاقتي بتلك اليهودية العجوز صاحبة متجر المجوهرات؟
- نعم.

- ضربة واحدة بهذه على رأسها تُغميها وأحصل على حفنة من
مجوهراتها.

تأملته باندعاش. قال:

- ارجع إلى السيارة. لا تؤخرني. إنها تقفل في الثامنة. قل للسائق
إني نسيت بعض الأوراق الشخصية في محل اقامتي. حاول أن تلهيه
بحكايات طريفة.

رجعت إلى السيارة. سألني السائق:

- إلى أين ذهب صديقك؟

... لقد نسي بعض الحاجيات في محل إقامته.

فتح راديو السيارة. ضبط الموجه على أغنية جزائرية حزينة. تذكرت ليلتي الأولى مع كارين وايفا في مطبخ الفندق. شخير الحارس يعلو وينخفض. نعم كان يأتي من بعيد. تأملت يدي فوق ركبتي العاريتين. كان النغم الحلو يقترب من الفندق وأنا أدخل في حلم جديد. قال المذيع:

- إليكم الآن الشيخ العنقا في أغنية «الحمام اللي والفتو».

روبيرتو قادم و الشيخ العنقا يغني الحمام اللي والفتو مشي علي. ما بقي لي في الدنيا ما ندير أمان.

فَتَحَ الباب وجلس جنب السائق وقال له:

- عفوا. هيا بنا الآن.

استرخى إلى الوراء. قال لي بالاسبانية:

- الآن كل شيء جيد.

فهمت منه أنه دق رأس اليهودية واستولى على حفنة من مجوهراتها.

- ١٧ -

قال روبيرتو للسائق:

- قف هنا من فضلك.

- ماذا يحدث؟

قال روبيرتو مازحا:

- لا تَحْشَ من شيء. إننا لن نقتلك. فقط سنتوقف هنا للحظات

لكي نصلي لهذا الليل. لا شيء خطير.

ضحك السائق ضحكة خفيفة. خرجنا من السيارة. قال السائق.

- لست أخاف من شيء.

قال لي روبيرتو:

- هات الزجاجاة:

أخرجتها من الكيس البلاستيكي. هواء بارد يصفع. تَنَفَّسَ

روبيرتو بعمق. فكرت: إنه يهيء نفسه لنتخطي خطر المغامرة. أخذ

مني الزجاجاة وفتحها. فكرت: كم هي موحشة هذه الليلة! مسح

روبيرتو عنق الزجاجاة براحته وقبلها. الأصوات الليلية تتجاوب. نُقِّ

ضفدع وضفادع أخرى. قال السائق:

- إن توقفنا هنا، بهذا الشكل، سيبعث الشك في أية دورية

دركية.

تنهد روبيرتو ماسحاً فمه بظهر يده. مدّ الزجاجاة للسائق:

- ويسكي جيد. اشرب نوبتك. أنا كفيل برجال الدرك. ليس ما هو أفضل من الويسكي لطرد التعب والقلق.

تبسم السائق متأملاً الزجاجاة. قال روبيرتو:

- كم أحب مثل هذا الصمت الوحشي!

تسلمت نوبتي. شربت ومسحت فمي. مددت الزجاجاة لروبيرتو. احتفظ بها في يده للحظة. تراءى شعاع سيارة من بعيد. التفت نحونا أنا والسائق. روبيرتو يتأمل الليل اللانساني ويتنفس بعمق بين لحظة وأخرى. سحب سيجارة. مددت العلبة للسائق. اقترب شعاع السيارة. تباطأت سرعتها. التفتنا نحوها. تضاعفت سرعتها ومرت كالبرق. قال السائق:

- إنها سرعة الخوف من كمين.

مدّ روبيرتو الزجاجاة للسائق:

- اشرب. سنقلع عندما تفرغ الزجاجاة، عندما تنتهي صلاتنا لهذا الليل ولأنفسنا.

ثم قال لي:

- كيف تشعر بنفسك الآن؟

- آ، إن فكرة هذه الزجاجاة رائعة (أضفت:) مانأمله هو ألا يزعجوننا كثيراً في الجمر. قال السائق:

- لا يشددون كثيراً إذا عرف الواحد كيف يتفاهم معهم.

- أنا الذي سأتكلف بالمتاع. اهتم أنت فقط بتسوية مرور السيارة.

(هكذا قال له روبيرتو ثم ربت على كتفه).

تسلمت الزجاجاة من السائق. مددت الزجاجاة إلى فمي وفكرت: إما بضع سنوات في السجن أو وضع أفضل. شربت حتى شعرت بالاختناق. قال لي روبيرتو:

- بدأت تشرب الويسكي كما لو أنك تشرب الماء.

قال السائق:

- يعجبني الويسكي، لكنه يثقب المعدة.

قال روبيرتو بمزاح:

- ويسدها إذا كانت مثقوبة.

أعطيت الزجاجاة لروبيرتو. شرب بقوة. تأمل بقية ما في الزجاجاة

وقال:

- تبقى لنا هنا نوبة واحدة لكل واحد. نوبة واحدة ونبدأ رحلة كل

شيء أو لا شيء.

صوت قربنا ضفدع. سألني روبيرتو:

- هل سبق لك أن أكلت وجبة ضفادع؟

- كلا، لكن سمعت أن أفخاذاها لذيدة.

قال:

- أفخاذ العالم كلها لذيدة.

تسلم السائق نوبته وقال:

المحرك وأقلعنا. قال:

- قلتُ لك بأنني لم أخف، إنما أنا أحتاط في مثل هذه الظروف.
واجهتنا سيارة بشعاع قوي أبيض. اضطرب المقود. شتم السائق:
- ولد الزنا. لم يغير الضوء. إنهم يشربون كثيرا في سبته ثم يقودون
سياراتهم. معظم حوادث السيارات التي تقع في طريق سبته يكون
أصحابها سكارى.

تراءت سيارة. قال روبيرتو:

- كن هادئا. (أضاف:) هل تريد أن أقود أنا حتى نقشرب من
الجمرك؟

التفت السائق نحو روبيرتو:

- كلا. إنني....

صرختُ في السائق:

- احذر... انظر أمامك!...

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^

- كان في طنجة مطعم خاص بوجبات الضفادع. اليوم لم يعد يحمل
سوى اسم «ضفدعة». هذا ما بقي منه.
سأل روبيرتو:

- لماذا لم يعد يقدم اليوم وجبات الضفادع؟

- كان ذلك في عهد طنجة الدولية. أيامَ كان بعض الأجانب لا
يصدقون أن طنجة تقع في المغرب.

سأل روبيرتو:

- واليوم ماذا يقولون عنها؟

- مدينة الذكريات القديمة: «هونغ كونغ» شمال إفريقيا. هذا
ماكانوا يقولونه عنها أيام عزها.
شربنا النوبة الأخيرة بسرعة. قال روبيرتو للسائق ماسكاً الزجاجاة في
يده:

- ما تقوله عن طنجة حق. هكذا أنا أيضا سمعت من أهل السوق
الداخلي.

تأمل الزجاجاة. وضع يده على جانبه الأيمن وقال بسخرية:

- الويسكي يسد المعدة ويشد الكبد ويمشط الشرايين.

باس الزجاجاة ورمأها في المنحدر. مرت سيارة أخرى التي تخطتنا.
دخل السائق وركبت أنا إلى الورا. ألقى روبيرتو آخر نظرة على المرج
المظلم. دخل وقال للسائق:

- والآن، هل مازلت تخاف؟

ضحك السائق. نَقَّ ضفدع وضفادع وَصَرَصَت حشرات. شغل

الآلم في جسمي كله. يشتد كلما حركت عنقي، رجلي اليمنى،
يدي اليسرى. إنني كركاز تمزقت بعض خيوطه. يمرون باستمرار دون
أن يلتفت تجاهي أحدهم. مرّ ممرض وممرضة. ناديتُ بصوت
متعب:

- آتسة.

سمعت الشاب الممرض يقول:

- انتظر. اصبر قليلاً. سنجد لك مكاناً عما قريب.

انقلبت سيارتنا مرتين. انقذت من الباب في المرة الأولى. اشتعلت
فيها النار ثم انفجرت. إما بضع سنوات في السجن أو وضع أفضل.
لا شيء من ذلك. مررت يدي على العصاة حول وجهي ورأسي.
قالت الممرضة:

- هل تشعر بتحسن الآن؟

مينة القصصري. لم أرها منذ عشر سنوات.

- قولي لي، من فضلك، ماذا حدث لصديقي روبرتو وللسائق؟
ألقت علي نظرة للحظة ثم قالت:
- ينبغي لك ألا تجهد نفسك الآن.

- أريد أن أعرف فقط. ماذا حدث لهما؟

قرأت على لوح سريري:

- علي التمسمني! هو أنت هنا؟

- أنت ترين. هل ماتا؟

- هزت رأسها بأسف.

إمّا كل شيء أو لا شيء. هذا ما كان يريد روبرتو. قالت:

- الحجرات فيها أكثر من اللازم من المرضى، لكنني سأحاول أن أجد

لك مكانا أفضل من هذا الممر.

- شكرا. إن حركة مرور العاملين هنا تشير أعصابي.

* تأملت بها بهدوء، انصرفت. هاهي إذن هنا. آخر مرة جلست إلى

جانبي في السينما مع صديقتها بدرية. عشر سنوات مرت على رائحة

البول في أصابعي والقبلات الخفيفة في الظلام: ظلام النفس وظلام

المكان. كنت أكتب لها بعض الفروض الانشائية وتحل لي هي تمارين

المعادلات ذات المجهولين. أحيانا تنجز لي رسوم الخرائط الجغرافية.

نالت علامة ممتازة عن موضوع «زلازل أكادير» الذي كتبه لها.

أهدت لي علبة سجائر شقراء وثمان تذكرة للسينما.

أعتذر. كان الشخص الأول يتأمل الميني - جيب. يضحكون

ويرفسون الكلب الهزيل العجوز. شورطها الشفاف يدغدغ مخي.

يرعشني.

- هل أصحبتك؟

- إلى أين؟

- إلى حيثما تشائين.

اللعيونة. اشتريت ساعة ومشيت في الشوارع بتوقيت جديد. جبين

النادل عرقان. قطرة من عرقه تدحرجت وتلاشت على خده. دمي

يسيل في خيالي وروبرتو يضحك كوحش أسطوري. صرخت:

احذر...! اللوحة تتأرجح في يد طالب الرسم. الكرة الضوئية تدور في

السقف وترسم أشكالا تنساب على الوجوه والجدران. نظري يخترق

وجه كارين. روبرتو يُجنّ في خيالي. أضحك مثله بقوة كي لا أخاف

سنة. قالت تانيا:

- ماذا تفعل هنا؟

تبعتها كأنني أتبع نفسي. شهوتي يوقظها وجه امرأة حزين. عينا تانيا

شهوانيتان مثل عيني أفعى. أشتهيها هي وأمها صاعدين الدرج.

الوجه الحزين يوحى لي بالاغتصاب. الوجه الضاحك أيضا يوحى لي

بالاغتصاب. الوجه الساكن كسطح الماء في سطل يوحى لي بالسفر إلى

مكان بعيد مفكراً ألا أعود.

- لم أعد أذكر ما حدث بالضبط بإسعادة الرئيس. كنا ذاهبين في

نزهة إلى سبتة.

- هل تعرف ما كان يفعله صديقك روبرتو في طنجة؟

- كان يحب قراءة الكتب خاصة الأشعار.

- فقط؟

- نعم.

- ألم تكن تعرف أنه كان يبعث برسائل مكتوبة بالعبرية إلى الخارج؟

- كلا.

- هل أنت متأكد؟

- نعم.

- وإذا أردنا أن نجعل «نعم» مكان «لا»!

- لا يمكن.

- كيف لا يمكن. كل شيء ممكن. اسمع: (صوت الرئيس

مسجلا:)

- هل تعرف ما كان يفعله صديقك روبيرتو في طنجة؟

(صوتي:)

- نعم.

- ألم تكن تعرف أنه كان يبعث برسائل مكتوبة بالعبرية إلى الخارج؟

- نعم.

- أليس هذا صوتك؟ هل سمعت نفسك تقول نعم؟

- نعم.

- سعادة الرئيس، إنني...

- كفى. أنت لا تعرف كيف تدافع عن نفسك.

نقيق الضفادع ونباح الكلاب يأتي من بعيد. فتاة عارية وشكل

حيواني أسطوري. تذكرت وحشية الجمال في حلم: كانت الفتاة

العارية تجري في الغابة. الوحش المفترس يوشك أن يدركها. وصلت

إلى حافة النهر. لم يكن الوحش يعرف السباحة، لكن تمساحا راقدا

كان يشاهد ما يحدث. التفتت خلفها دون أن ترى التمساح. ألقت

بنفسها في الماء قبل أن يدركها الوحش. الكهل الزمني يتأمل السيفان

من منبت الساقين حتى نهاية الخصر. لم يكن ينظر إلى وجهها كان

مؤخرة المرأة نسخة من وجهها. عيوننا تضحك. الشفاه تنسحق.

أحيانا أتخيلها كشروج تلك الشفاه. وجه كارين بين يدي كوردة لم

تضحك بعد. أنطح الجدار في خيالي. الدم يسيل على عيني. الأشياء

تبدولي من خلال الستارة الدامية شعلة من النار في الغسق. في الدرج،

وأنا خلفهما، انتهيت أمها من خلال ابنتها تانيا: نصفي الأسفل

لتاتيانا ونصفي الأعلى لتانيا. الأحذية في بيت تاتيانا تبدولي مثل فروج

مفغورة تنتظر ما تمتصه.

- ألم تكن تعرف أن صديقك روبيرتو كان جاسوسا هنا في طنجة؟

- أبدا لا، ياسعادة الرئيس.

- لا تعرف عنه أي نشاط سري كان يقوم به ضد بلادنا اذن.

- كان يحلم كثيرا، ويقرأ كثيرا، ويؤمن بمذهب لا شيء. كان

يحب الشعر ويكرهه.

- يحب الشعر ويكرهه. ماذا تقول؟ وضح كلامك.

- كان يقول بأن حبه للشعر هو سبب ضياعه: «إذا أردت أن تكره

شيئا، اهتم به كثيرا. أحبيه بجنون». هكذا قال لي.

- هذا غريب.

- صحيح. لقد كان روبيرتو شخصا غريبا، لكنه كان إنسانا طيبا

مع الفقراء.

- دعنا من محبته للفقراء. إننا نريد أن نعرف ما كان يفعله ضد

بلادنا.

- ذات يوم ألقى بكتاب شعر من النافذة ثم ندم. وعندما هبط ليسترجعه كان الكتاب قد اختفى. إن إنسانا آخر سيشقى إذا عثر عليه وقرأه. هكذا قال لي. كان دائما في حاجة إلى الكلمات الجديدة، لكنه كان يكره قواميس اللغة. كان يفضل العلم على الشعر، لكنه أيضا يكره اينشتاين وفرويد. يشرب الويسكي ويقول بأن الماء ليس صالحا إلا للغتسال. الماء للضفادع والجمال والأسماك. إنه... إنه... إنه...

- تكلم.

- الأشياء التي كان يقولها كثيرة.

- أعرف ذلك. لهذا سنساعدك على أن تقول لنا عنه كل ما كان يقوله. أنت تقول: «كان يحلم كثيرا».

- نعم.

- إن من يحب الحلم، مثلا، لا يمكن أن يكره الشعر.

- كان شخصا غريبا يساعد الرئيس. من أغرب الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي. كان أيضا يكره أكل الفواكه لأنها ليست صالحة إلا للقروء.

- هل تعرف أشخاصا آخرين غرباء يشبهون قليلا أو كثيرا صديقك روبيرتو؟

- نعم.

- هذا مهم. إن كلامك بدأ يتحسن. بدأ يهمننا ما تقوله. بدأت

تفكر جيدا. أذكر لنا إذن أسماءهم ومهامهم قبل أن تضع في فراغ ذاكرتك. أقصد لذاكرتك.

- لم أعد أذكرهم يساعد الرئيس.

- ها أنت بدأت تسوء. حاول أن تذكر القليل مما تعرفه عنهم. ادلك ذاكرتك حتى تستعيد حيويتها. ليس من المهم أن تتذكر كل شيء. سنساعدك. هاك (اقتربت من المنصة وأعطاني ملبسا). تناول. اتركه في فمك. سيدوب. لا تخف. إنها كبسولة تحتوي على مادة تنشط الذاكرة المتعبة.

ضرب الشاب الفتاة عند أسفل بطنها. شتمته الفتاة. ضحك في وجهها بوقاحة. لطمها بلطف على نهدتها. صفعته. تَلَأَى الصفعة وأصابت صديقه. أمسكها من معصمها وضحك بوقاحة في وجهها. العودة إلى مدينة والدوار في رأسي وزحام المدينة ينتظرني. حمار يركب حمارة. بعضها في قفاها. فتاة تتأمل الايلام اللذيذ من النافذة بانسراح. شعرها مقصوص وثيابها شفافة، يدها اليمنى ترقص على صدرها والأخرى مختفية. رأيتني.. اختفت باسمه في غرفة فيلاًها الجميلة.

- لكن روبيرتو مات، مات.

- إننا نحاكم الأموات والأحياء. ألا تعرف هذا؟

- كلا.

- قل لي، هل أنت متأكد من أن روبيرتو لم يموت؟

- هكذا قالوا لي.

– من قال لك أنه قد مات؟

– لم أعد أذكر. شخص ما أخبرني أو أشخاص.

– وإذا برهننا لك بأن صديقك روبيرتو لم يمت.

– روبيرتو مات. هذا ما قيل لي.

– كذبوا عليك. من السهل أن يكذبوا على شخص مثلك.

أشار الرئيس إلى شخص واقف على يساره. انفتح باب على اليمين. ظهر شخص لا وجه له. أمره الرئيس:

– تكلم، كلم صديقك علي. إنه يدينك بالموت ولا يصدقنا. انف عنك هذه التهمة.

• قال روبيرتو:

– علي، كيف أنت؟ أنا روبيرتو.

إنه صوته. لا أكاد أصدق. إنه هاديء مثل ميت. أهو مخدر؟ ولكن أين وجهه؟ قال الرئيس:

– ها أنت ترى بأن روبيرتو مازال حيا.

أشار الرئيس بيده. مشى روبيرتو ببطء مثل روبوط واختفى خلف الباب. إنه روبوط حقيقي.

– ولكنه لا وجه له. أين وجهه ياسعادة الرئيس؟

– لا يهم إن كان له وجه أم لا. المهم هو صوته. الوجوه بدأت تختفي. قليل من الوجوه هي التي مازالت تظهر بين حين وآخر. ستختفي هي أيضا. كل الوجوه الخطيرة ستختفي. ألم تسمع بهذا؟
– كلا.

– ها أنت تعلم اليوم. الوجوه تتشابه ولا تتشابه. لو أردنا خداعك لوضعنا لصديقك روبيرتو قناعا مطابقا تماما لوجهه الذي كان له. لكننا لا نريد أن نخدع إنسانا مثلك، ضعيف الذاكرة والمنطق. لقد أصبح صديقك دون وجه.

اجمع الزهور في أحد الحقول. تخاورت الأبقار والثيران. حمار ينهق. حمير تنهق. الأغنام تغثو. نهضت امرأة من وراء دفتى قرب الوادي: «ألا تحشم أيها الطفل؟» تشدُ سروالها التحتاني باضطراب. لم أفهم ماذا تعنيه، «حول وجهك عني». رميتها بالطوب وهربت. «انتظري، أعتقد أنني أعرف ابن من تكون. سترى فيما بعد. سأخبر أمك يا قليل الحياء».

قالت النساء لامي في قاعة الاستراحة:

– ابنك أكبر من أن يدخل حمام النساء.
– هذا عيب.

– صحيح. إنه يعرف كل شيء.

قالت أمي لمن:

– لا يعرف بعد شيئا. إنه مازال صغيرا.

– يعرف. يعرف كل شيء. كل من هو في سنه اليوم يعرف كل

شيء. ألا تريه كيف ينظر إلينا!

قالت أمي:

– هو خائف منكن. إنكن تخفنه.

قالت امرأة بدينة:

- اتركه. إنكن حقا تخفنه.

بدأت أبكي. قالت المرأة البدينة:

- لا تبك. تعالى معي يا عزيزي الصغير. أنا التي سأدخلك معي إلى

الحمام. لن تجرؤ احداهن أن تمسك بسوء.

مَسَدَتْ شعري. باستني على خدي. أمسكتني من يدي. تمسكتُ بها. كانت أُمِّي تخلع ثيابها لتدخل إلى الحمام عندما قالت امرأة بخبث:

- سنرى ماذا سيفعل عندما يرانا عاريات تماما في الداخل.

قالت المرأة التي تحميني:

• - لن يفعل شيئا. ماذا تعتقدين، هل سيجيء عندك ويطلب منك أن يحك لك ظهرك وفخذيك؟

ضحكت النساء. قالت لي حاميتي:

- لا تخف. إنك الآن معي. سأدق عنق من تمسك بسوء.

تذكرت أُمِّي عندما تقول لي في الظلام: «نم. لا تخف من شيء». إنني هنا معك». كانت النساء ظلما وحاميتي صَوَّتْ أُمِّي في الظلام. كففت عن البكاء ويدي شابتان بيدها العرقانة. مشيت إلى جانبها إلى الحمام وحول نطاقتي فوطة صغيرة.

لاول مرة، أنا ومينة، ننظر إلى بعضنا بجذ وغموض. نظرنا إلى المدى البحري. بواخر تبدو كما لو أنها لا تتحرك. الأفق يبعث قِي دائما شوقا إلى المجهول. المجهول الذي يُشَوِّقُنِي إلى مجاهيل لا تنتهي. قال لي فمها: «ها أنا. قبلني». تذكرت نافضة سجائر مكتوب عليها:

«اسرقني». ازدادت غريبتنا. الأفق يضاعف الحنين إلى عالم مجهول. قلت لها:

- مينة.

تطلعت إلي وقالت:

- لا شيء.

ابتسمنا. ضممتها بقوة وبستها. وجهها كما لو أنها تستيقظ من النوم. قَطَفْتُ لها زهرة من الحديقة العمومية. تأملتها بحلم. تدير الزهرة بين أصابعها. حطمت القبلة غرايتنا. كشفت لنا القبلة عن جدية مفاجئة: أنا رجل وهي امرأة. كان صفة كلانا غائبة عن كل واحد منا. إعلان. القبلة إعلان.

- أتمنى لو أننا الآن في إحدى جزر هاواي نقطف زهور الأوشيد ونتناول طعامنا فوق شجرة أو تحتها.

- يمكن أن نفعل هذا هنا.

قلت لها.

- البعد. ما أريده هو البعد.

- من فضلك، إنني في ظروف صعبة. هل تعطيني درهما؟

مضى بحيوية دون أن يلح أو يتذمر. ندمت. أشعر دائما بنوع من الغباء يلزمني في مثل هذه الظروف. الأشياء إما تفوتني أو لم تأت بعد. أو تكون قد جاءت ومضت دون أن أشعر بعبورها. تدهشني العلاقات البشرية. أحيانا قبل أن أفكر في أمر ما يكون كل شيء قد تقرر تلقائيا. المفاجأة لا تترك لي مجال الاختيار. إنها دوار. بطن كارين يخفق تحت

رأسي. أصابعي تغوص في شعرها الأملس برفق وأصابعي الأخرى
تغوص في فرجها مثل الفلّان. يا لرياضة الحب التي أنستني خيبتني في
طنجة.

لوحة للأصافية في يومها السابع. أسبوع مضى على افتتاحها.
هذا ما تقوله تقاليد الزواج هنا. جرحها لم يزل طرياً والرسام النصراني
يرسمها. قال روبيرتو:

– باللعالم الذي ما يزال يحتفل بالافتتاح.

• دهشت في الحمام لعري المرأة القوية التي أدخلتني معها. بدت لي
النساء العاريات مثل أسماك واقفة وجالسة ومنبطحة. بعضهن
يحلقن عانتهم وابطيهم. دهشت كثيراً. قالت لي أمي وهي تحك
ظهر المرأة السمينة التي أدخلتني معها:

– لا تنظر إليهن كثيراً.

بعضهن لم يكن عاريات تماماً. رأيت امرأة تحلق ابطيها ثم
انفرجت ساقها وأخذت تحلق أسفلها وسطل الماء أمامها. الحرارة
والعري ورائحة العرق تُغثيني وثرثرة النساء التي لا أفهمها. ضحكات
وشتائم. فرقة اصطدام الأسطال وشجارهن حول سقي الماء الساخن
من سقاية الحمام.

أحسست بعربي تُقاد إلى اليمين. فتحت عيني: ممرض شاب إلى

جانبه مينة تنظر إليّ باسمه. كل شيء يحدث من أجل ما هو أفضل.
المدينة كلها أمامي. واقف فوق قمة الصخرة في سيدي عمار. إيوريكا!
EUREKA أوري إي أوري URBI ET ORBI.

محمد شكري

طنجة ٢٠ أبريل ١٩٧٦

www.mlazna.com
^ RAYAHEEN ^